غسيل المنتقبات

محمود توفيق حسين

غسيل المنتقبات / قصص

محمود توفيق حسين

الطبعة الأولى ، ٢٠١٠م

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١٠ ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

عبد الرحمن حافظ

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢٤٥٢٨

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٩٥- ٧

غسيل المنتقبات

قصص

محمود توفيق حسين

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع



غسيل المنتقبات



دعانا إلى زيارته في محلّ سكنه الجديد، فقد غيَّر مترله بسبب حكمٍ قضائيٍّ لصالح مطلّقته بخصوص النَّفقة، وسكن في حجرة فوق السَّطح في حيٍّ عشوائيٍّ.

عندما وصلْنا تحت بيته، واتَّصلنا على رقم جوَّاله الجديد أيضًا، نزل لنا وقد بانت عليه الهموم، وانطفأ من عينيه بريقُ الثّقة بالنَّفس والتَّفاؤل، أربع سنوات لم أرَه فيها غيَّرتْ فيه الكثير، أخذنا من يده إلى مقهًى بشيءٍ قليلٍ من الخجل؛ من كونه لا يقدر على أن يضيِّفنا في بيته؛ فصاحبُ البيت حرَّج عليه استقبال الضَّيف باعتباره أعزب، تقبَّلْنا الأمر ببساطة، وإن كنت في أعماقي قد أُصبتُ بخيبة أملٍ؛ كنت أمني نفسيً بأن أتركه يسمر مع الأصدقاء؛ لأنام ساعةً عنده.

لما وصلنا للمقهى النَّائي المتواضعِ الذي يقع على ضفة ترعة آسنة، وقريب منه حقلان صغيران حاصرهما بيوتٌ متواَضعةٌ، وعشَشٌ سكنيَّةٌ، حكى لنا كيف انقلبتْ عليه زوجُه الجميلة التي حسده عليها الأقاربُ والأصحاب يوم زفافهما، كيف انقلبتْ عليه مع انقلاب أحواله المعيشيَّة، وعن زواجه الذي انهار، وحجم المشاكل العائليَّة والخصومة، وكيف أمسى مطاردًا من الفاتنة التي منحها كلَّ شيءٍ.

بعد وقت غيَّرنا اتّجاه دفّة الحديث ؛ حتى نُخرجه قليلاً من أحزانه، أدرْنا أحاديث المثقفين والمتثاقفين، وبدأنا بالنّظر في حجم المقالات التي انطلقتْ مرَّةً واحدةً في الصُّحف تهاجم النّقاب والمنتقبات، والسَّلفيَّة والوهَّابيَّة، إلى آخر ما يمضغون، ثم خرجنا من هذا إلى حديث عن قضايا النّشر وضوابطه، حتى غاب الأصدقاء عمَّا حولهم وعمَّن حولهم، وقد كان حولنا روّادٌ مُريبون غلاظٌ، وكنتُ طبعًا أخفض صوتي ونحن ندير حديثنا؛ حتى لا يستغرب مَن حولنا ما نقول، ويشعروا بعداوة تجاه وجودنا مثلما يشعر النَّاس تجاه ما لا يعرفون ومن لا يعرفون، بينما صاحبنا المطلّق قد انطلق على سجيَّته في الكلام، لم أكن أخفض صوتي فقط من أجل ما تقدَّم؛ ولكني أيضًا كنت مجهَدًا وفي حاجة للنَّوم، لم أنم منذ الأمس إلاّ ثلاث ساعات؛ لذا بدتْ لي الأشياء في هذه الأمسيَّة مائعةً ومهتزَّةً وضبابيَّةً كأنها بين الحقيقية والخيال.

كلام المثقّفين أحيانًا ما يستجلب النَّوم، أشعة القمر على صفحة المياه السَّوداء، وعلى جلد ذلك الحصان الأدهم، النافق الملقى بين الهيش[١] وماء التُّرعة كان أيضًا يستجلب النَّوم، وقرقرة الأرجيلات التي حولنا، والحديث الخافت بين ثلّة مشبوهة قريبًا من موقد الفحم، والوجوه العابسة ،حتى القلق

[١] الهيش: نبات ينمو على شواطئ الترع والمصارف.

نفسه أحيانًا ما يستدعي النوم، وصورة زوجة صاحبي المائلة المميلة، التي ارتدتْ فستانًا مكشوفًا في حفل عرسها، كانت تستجلب النَّوم، والحزن على أحبابٍ ما تربت يداهم كان باعثًا على النَّوم.

شعرت بأني نمت قليلاً، لجزء من الدَّقيقة، عندما استدرتُ لأطلب من السَّاقي فنجان قهوةٍ، فرأيتُ ذلك الصَّارم الجاهل الملامح، الجالس خلفنا متحفزًّا، يعضُّ على طرف شفته، ويهزُّ ركبته، ويطرق عليها بأصابعه، إنه يريد أن يدخل طرفًا في حوارنا، فاستدرتُ قلقًا وأعطيته ظهري، مما ضاعف إحساسي بالرَّغبة في النَّوم، فنمتُ ذلك الجزء من الدَّقيقة، لا أعرف كيف كانت فترةً كافيةً، وأيضًا نمتُ مرَّةً أخرى لجزء من دقيقة عندما هبَّ النَّسيم في هذه الليلة الحارَّة وحمل معه شيئًا خفيفًا من رائحة الجيفة المنتنة، وقد اختلط بمزيجٍ من رائحة الحقل. رأيتُ في هذه السِّنة من النَّوم كلابًا ضالةً تنهش بطن الحصان المنتفخ، فأخذ يتقلَّب كما يتقلَّب النَّائم، ثمَّ اضطرب ونشط، وقام وانطلق يمخر[٢] في مياه التُّرعة بعنفٍ وعافيةٍ وهو يجرُّ أمعاءه، ففتحتُ عيني مندهشًا ، ومتجنِّبًا لرشاش الماءً، غير أني وجدت

---

[٢] يمخر: يشق الماء بصوت.

الحصان في استسلامٍ تامٍّ لأنياب الكلاب. بعد قليلٍ، قام الأصحاب ليأتوا بعشاءٍ من مطعمٍ بعيد، وقد تركوني أنتظرهم وقد ثقلتُ أمامهم على الكرسيّ، وحذّرني صاحبي المطلّق من قبل أن يمضي: لا تتحرّك حتى نعود لك؛ فهذا مقهى مشبوهٌ إلى حدٍّ ما، وقد يظنُّ الجالسون أنك مرشد مباحث أو ما شابه، إن قمتَ فجأةً، أو أخذت تجيء وتذهب، سلّمك الله.

ولِمَ أتيتَ بنا إلى هنا؟!

ومضوا بالسيّارة، وفجأةً، وقد رغبتُ في دقائق من النّوم، وقبل أن أرمي برأسي على الطّاولة أمامي، إذ بيدٍ صلبةٍ جلفةٍ تهوي على كتفي:

يا أستاذ، أنتم كنتم تتحدّثون عن قضايا النّشر.

نعم نعم.

أنا عندي موضوع يخصُّني أنا، له صلة بقضايا النّشر، فهل تسمع مني؟

تقمّصت دور الذي فوجئ مفاجأةً سارّةً، كأني أريد أن أتلقّف ما سيلقي به الرّجل: حقاً؟! قل ما عندكَ.

فقام حاملاً كرسيّه في يده، وعلى وجهه السُّرور والتأهُّب والعزم، وجلس أمامي، ومال على وجهي مبتسمًا: أنا حرامي غسيلٍ، وتبتُ منذ أيّامٍ قليلةٍ، نشر أم لا؟

نعم نعم، نشر غسيلٍ.

نعم، ولكن لا تقلق يا أفندي؛ أنا تبتُ.

مقبولة إن شاء الله.

وناديت السّاقي ليحضر له ما يشاء؛ مجاملةً مني لرجلٍ لا يؤمَن غضبُه، وحفاوةً برجلٍ يقول إنه تاب.

وتكلّم بصوتٍ عالٍ كأنه يخاطب بعيدًا، ودونما حرجٍ:

مهنتنا انقرضتْ، أو أوشكتْ على الانقراض.

تمنيت أن لو قال: مهنتي، ولا يجمع؛ ما دام أنه عالي الصَّوت، ثمّ عقّبت على كلامه بصوتٍ خفيضٍ جدًّا، كأني ألفت انتباهه لكي يخفض صوته، وقلت - وبعينين زائغتين، وبنفسٍ مجهدةٍ، وبنفَسٍ متعبٍ -: هذا صحيحٌ، حرامي الغسيل أمسى ذكرى من ذكريات عالم السَّرقة، مهنته فيها مخاطرةٌ عاليةٌ، كما أن مرْدودها ضعيفٌ ، كذلك ، فهي - صراحةً - تحتلُّ المرتبة الأخيرة من ناحية النَّظرة إليها في عالم السَّرقة.

صحيح، أحسنت!

صراحةً: يُنظر إليها باحتقارٍ في عالم السَّرقة، هي وسرقة الأحذية من عند الجوامع.

تمام، سيادتك متابع.

وقد أحسنتَ إذ تركتَها، وتركتَ عالم الجريمة كلّه.

فمن أجل كل ما قلتَ؛ تركتُ هذا العمل إلى الأبد، وكذلك من أجل ما سأحكي لك.

تفضَّل.

إذا عُرِف حرامي الغسيل في منطقة عمله، فإنه لا يأمن ألا يُستدعَى مع كلِّ حادث سرقة غسيلٍ يقع في دائرة نشاطه، فعَلَها أو لم يفعلها.

مؤكَّد.

وحدث أنني فكَّرتُ في أن أفْضل ما أقوم به - وإلاَّ اضطررتُ لترك محلِّ سكني - هو أن أسرق ما لا أظنُّ فيهم رغبةً في إبلاغ الشَّرطة؛ أي: من سيبتلعون الخسارة ويصمتون، ويفضلون هذا على الذَّهاب لقسم الشُّرطة للإبلاغ.

هذا يتطلَّب نوعيةً خاصَّةً من الزَّبائن.

ں من الملابس، قبالة محطة المترو القريبة من حيِّنا بيت (عالمةٍ) معروفةٍ.

عالمة! في أيِّ مجالٍ؟

يا رجل، عالمة؛أي:رئيسة الرَّاقصات التي تدربهنَّ، وتشغِّلهنَّ، وتقاول على أعمالهنَّ.

مفهوم مفهوم، فأنت قررت إذًا...

أن أهبط على السَّطح بجنودي – وما أدراك ما جنودي؟! – فيلملمون "بذلات" الرقص كلها، وأبيعها؛ باعتبار أن (العالمة) ستتردَّد ألف مرَّة قبل الذَّهاب لتحرير محضرٍ بسرقة "بذلات" الرَّقص، فيتلقَّاها الضبَّاط والمساعدون والأمناء بالهزء والاستخفاف.

وهل فعلت؟

ولكنك لم تسألني عن جنودي.

مساعدوك، أليس كذلك؟

إنها ثلاثة قرودٍ درَّبتها على سرقة الغسيل، وهكذا كان يسرق أبي وجدِّي وجدُّ جدِّي، أصعد بها للسَّطح، ثمَّ أتركها وأنزل، فيفرد كلٌّ منها ملاءةً، ويبدأ في جمع الغسيل، ثم يصرُّ الملاءة ويحملها على ظهره، وتترل القرود لتجدني بعيدًا قليلاً، أنتظرها ومعي العربة، فأغطِّي القرود والصرَّات جميعًا، وينطلق بنا الحصان.

شيء مدهش!

بل هي مدربةٌ على أن ترمي الغسيل عن ظهورها، وتمضي بعيدًا دون أن تأتي إلى العربة، إذا ما طاردها النَّاس.

عجيب!

وإنه لمنظرٌ يخيَّل إليك منه أنك قد أصابك في رأسك شيءٌ، وأنت تنظر إليها وهي تحمل في جنح الليل ما تحمل وتمضي مسرعةً.

حسنًا، وهل فعلت؟ هل هبطت على سطح العالمة؟ قل لي: ما شعورك وأنت...

احتدَّ: ولا شعور ولا بطِّيخ، دعني أكمل.

تفضَّل.

فعلت، ويا ليتني ما فعلت، ويبدو أنني لا أنزل النَّاس منازلهم، لم يمرَّ إلاَّ ليلةٌ ونهارٌ، ثمَّ قبضوا عليَّ قبل أن أتحرَّك للتَّصرف في "بذلات" الرَّقص التي كنت أتوقَّع منها مبلغًا كبيرًا، اقتادني المرشدون من بيتي للقسم، وأدخلوني بالصَّفع إلى مكتب المأمور، كانت المرأة هناك، بلباس أنيق، وبعينين جريئتين، وساق على ساق، هذا هو يا سيِّدة الكلِّ، وقفتُ أمامها مطأطأ الرَّأسً، عيني علَى الأرض، والدَّم يترف من أنفي، وأشبعتني شتمًا ولعنًا وزراية بمهنتي، مثل: (يا حرامي الغسيل، يا معفن).

وعليه؛ فقد قررتَ ترك مجالك المهين.

كانت هزةً عنيفةً، قرَّبتني من النِّهاية، فقد كنت أظنُّ أنني وإيَّاها في الهمِّ والعار سويًّا، مكثتُ فترةً وأنا في حيرةٍ لا أعرف كيف أتّخذ قرارًا.

المهمُّ: بعد أن قال الشَّيخ الأكبر - أكبر عمامة في البلد - ما قاله عن النِّقاب، وما فعله بالتلميذة الصَّغيرة، وما قاله لها مستهزئًا بها وبما تضع على وجهها، وحظره ارتداء النِّقاب داخل المعاهد التَّعليميَّة، قلتُ لنفسي: هؤلاء هنَّ الغرباء، صاحبات الأجنحة المكسورة، هنَّ اللائي لن يستطعن الذَّهاب إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن سرقة نقابهنَّ، بعد ما قاله الشَّيخ، صار على هؤلاء أن يَقبَلن الأذى وسرقة غسيلهنَّ ويسكتن.

أي شيطانٍ أغواكَ؟!

لم يكن في الأمر عبقريةٌ مني، كلاَّ، ولا من قراءتي للجرائد؛ فقد اختمرتِ الفكرة في ذهني بعد أن ركبتُ مواصلةً عامَّةً، وشاهدتُ رجلاً وقورًا وعلى وجهه علامة السُّجود يقول بصوتٍ خفيضٍ وقد قطب جبينه؛ لرؤية امرأةٍ منتقبة قد ركبتِ الحافلة: (جاكم البلا في مناظركم).

طبعًا هذا بعد ما قاله الشَّيخ؟

بعدها بأيامٍ قليلةٍ.

وعليه - وللأسف - فقد قرَّرتَ سرقة غسيل المنتقبات بقرودك الغريبة؟

بان على وجهه الخزي:

نعم (وسكت قليلاً ثمّ أكمل): هناك بيتٌ لعائلة سُنيَّة[٣]، كلُّ نسائها منتقبات، أسفله مسجدٌ صغيرٌ، بعلوه مقرأةٌ.

وشرب كوبًا من الماء، ثمّ أكمل:

هبطتُ على السَّطح، وأشرت للقرود بعنف تجاه العباءات والبراقع السَّوداء والقفّازات، فنشطتْ وهاجتْ، حتى إنني خفتُ منها، ونزلتُ إلى العربة منتظرًا، وقلبي كان يدقُّ بعنف؛ خوفًا من الله، بعد قليلٍ هبطتْ إلى الشّارع تحمل الصرّات، وجرتْ إلى ناحيتي، وقفزتْ على العربة وهي تقهقه قهقهة الفائزين.

ولما فردت عليها ملاءةً من الخيش هي والصرّات، أخذتْ تقرص بعضها بعضًا ضاحكةً تحت الخيش، وتقهقه، وتخاطب بعضها بعضًا ثمّ تضحك، كأنها تتندَّر من حادثةٍ ظريفة.

سامحك الله و.....

ولم يسمع ما قلتُ له؛ بل لم أسمع أنا بقيّة كلامي ولم أعرفه؛ فقد مرّتْ عربة رشِّ المبيدات بضجيجها، وغمرت بدخانها كلَّ الحاضرين، وخلفها صبيانٌ يطاردونها فرحين، وغاب الكلّ عن الكلّ، ولم أعد أرى محدِّثي، وتخيَّلته بوجهٍ غير

[٣] عائلة سنية: عائلة ملتزمة، يطلق العوام في مصر على الملتزمين: السُّنيين.

وجهه، أخذ يتكثّف

شيئًا فشيئًا، وجه بشوشٍ معمَّمٍ، حتى صار هو! قال لي مِن خلف الدُّخان بصوتٍ متحشرجٍ:

القرود، القرود المعلَّمة التي حرَّضتها على مهاجمة ملابس المنتقبات، لا أستطيع أن أوقفها، هل تسمعني؟ كلما تمشَّيتُ بواحدة منها في الطَّريق في الرِّياضة اليوميَّة، ومرَّت بنا امرأةٌ منتقبةٌ، هاجتْ، وقهقهتْ، وحاولتْ بكلِّ شراسةٍ أن تفلت مني؛ لتنزع عن التي تمشي في أمانٍ نقابَها، لم يحدث هذا حتى الآن، وقد يحدث.

كأنما تلبَّستها الشياطين.

ماذا؟

أقول: كأنما تلبَّستها الشياطين.

والقرود لم تهدأ بعد، ويبدو أنها لن تهدأ ثانيةً، كأني قد حضَّرتُ عفريتًا لا أستطيع أن أصرفه، فقل لي: كيف أصرفه؟

أخذتُ أسعل بشدَّة حتى دمعتْ عيناي، وتقطَّعتْ أنفاسي، حتى هدأتُ قليلاً، وفتحتُ فمي عن آخره؛ أعوض ما فاتني من نفَسٍ وأنا أتأوَّه، وبدأ الدُّخان ينقشع، وأخذت العمامة تختفي،

وأخذ الرجل يستخلص وجهه من الوجه الذي تلبّسه، حتى استعاده كله.

لكن الأمر لا يتوقّف على قرودك الثّلاثة.

الخبء



خيالاتٌ من الظل والضوء المشوَّش تهلُّ عليّ فجأة في شرودي وتغمرني، مثلما كانت تهلُّ كلَّ مدَّة، تتحرك حولي حركةً شبحيَّة، وتمرّ من جسدي وتخرج، محملة بوشيشٍ يأتي من بعيد، أسمع فيه ولا أكاد أسمع صوت هدهدة، من هدهدٍ سابحٍ في خلاءٍ مرسلٍ، يَبعث صوتَه في عالم الشهادة، وتلكَ رائحةٌ معتَّقةٌ للماضي فيها شيءٌ من الصندل وحنوطِ الموت.

عُقِد قِرانُ أختي في الشتاء القديم، أول شتاء أعيه، هناك خلف سور البيت العتيق. هذا خفيت دَرداب الدُّفوف يأتي من داخل، أقتربُ، أدلف مع الذكرى، في البيت فرحٌ ونساءٌ كثيرٌ يباركْنَ، يُنشدنَ الأناشيد المتوارثة في الحوش الفسيح، وقد اتكأنَ على جذوع النخل الذي يرنو للجالسات تحته ويهزُّ طلعَه. وفي علّية، انزوَتْ عروستُنا حياءً، حتى لا يرى الصبيةُ الذين أتَوا مع أُمهاتهم زينَتها، فصعد النسوة إليها تباعاً بلا أطفالهن، وأحطْنَها، وصعدتْ عجوزٌ بشوشةٌ في تُؤدَة، ودخلت ونقشت على يديها أزهاراً من الحنَّاء، وهي فيهن كفراشةٍ بين أوراق شجرٍ كثيفة، تراها ولا تراها. ولّما قُمنَ من على الزَّرابيِّ

وانصرفنَ، وتركن من ورائهنّ خلوفاً من الطّيب، وطنيناً مما يتبقّى قليلاً بعد انفضاض الهرج، صعدتُ أطالع الحنّاء في يديها، وثوبها الحريري، وأسمع وسوسة حُلِيِّها الكثيرة، وقد بدت في الحلِيَة خَجْلَى ومرتبكةً.

وأذكر كيف ارتحلتْ في الغد إلى المدينة الإقليمية التي كنت أنطق اسمها مغلوطاً؛ ودّعناها طويلاً عند مدخل البيت حتى استقلّت سيارة (بيجو)، وهي دامعةُ العينين خلْفَ نقابها، وخلفَ زجاج السيارةِ تُشيرُ لنا. كانت هنا، واحدةً من الغَرَابيب، ذهبتْ من بيتنا وأخذت معها المرح الهذيبَ والحنان وأمومة وُلدتْ بها.

أخذتُ أبكي يومها بَعد أن تحركَت السيارة وأنا أكاد انفطرُ؛ من أجْلِ أختيَ التي ذهبتْ بعيداً، وأنكرْتُ البيتَ والنخل والجدرانَ العتيقة، ولمْ أتوقف يومها عن الاحتجاج وعن طلب الذهاب إليها حتى أضجرتُهم، وذقت مرارةَ الليلة الأولى للفراق، كان صعباً جدًّا.

في الأسبوع الأخير من شهرِ العسل حملَني الخالُ إليها هناك، وكنت طوال الطريق البرّيِّ الطويل متحرقًا لرؤياها بعد هذه الغَيبة، ووجهُها الصبوح يطلُّ عليّ من خلف كل كثيب، وعندَ كلّ شجرةٍ رعويةٍ، وأستمع من عزيف الرّمالِ لشيءٍ مثل

وشوشَتها. أنظرُ للهدايا التي حملناها إليها، وكأنّني أنا الذي جمع هذه الأشياءَ ليهديَها إيّاها ، وعيناي دامعتان من الشوق والفرحة. ولم أعدّ شيئًا مما يعدُّه المحبُّ من حديث لحبيبه حين يلتقيان؛ كانت الكلمات عندي قليلةً، وبسيطةً، وخضراءَ، فقط عندي رغبةٌ في احتضانها، والجلوس في حجْرها، واللعب بين يدَيها، ورؤية غمّازتَيها اللّتَين تُنيران وجهَها.

استقبلتُ أنا وخالي استقبالاً كريماً، وتشبَّثتُ بها أنا طويلاً وجعلتُ اتشمَّمُها وأبكي، حتى هدأتُ قليلاً، وخالي يسألُها: ما كلُّ هذا الحبّ؟!

ووضعتْ أختي بين يديَّ كميةً من الحلوى، آكلُ حيناً، وأقبّلها حيناً. ثم غابت في المطبخ لتأتينا غداءنا فذهبتُ معها تاركاً الرجُلين لكلام الرجال، مُسائلَها عن ذهاب الحنّاء من يديها إلاّ قليلاً، فأجابتْ بان الحنّاء لطيفةٌ لا تُعمِّر.

بعد الغداء وشرب الشاي، قام الخال لينصرف على أن يعود هو وأمّي بعد أسبوعٍ ليحملَني، فتمسّكَ به العريسُ وأختي كثيراً، إلاّ أنّه أصرَّ على الانصراف، بينا أنا كنت أداري نفسي تحت السريرِ خوفاً من أنْ يطْلبَني للرحيلِ معَهُ، ولّما مضى تنفّستُ الصُّعَداء وخرجتُ.

لَمّا مضى لحال سبيله، وبدأت أتعرف إلى المكان وهذه الأسرةِ الصغيرة، شعرتُ شيئاً فشيئاً بعدها بأنّي ضيفٌ ثقيلٌ على العريس، بدا هذا في عينَيه الصريحتين. وأنا أيضاً كنت أستثقله، وأغاظُ منه ومن قربه منها وتلطّفها معَه، وأعجب من أبي كيف ترك أختي مع هذا الرجل!

ولأنني غِرتُ منه وهو استثقلَني، انسحبتُ معظمَ وقتي إلى الشُّرفة ذاتِ الطراز العتيق، ألعبُ باللُّعَب الّتي قدّمتْها لي أختي، وأنظرُ إلى أطواق البامية الجافّة التي تخزنها في الشرفة، وواضعاً رأسي حيناً بين برامقِ سُورها، أُطلُّ على السابلة من الطابق الثاني وأتسمَّع لأصوات الباعة الجائلين، وأنظر للمقهى الشعبيِّ وعامله يحملُ الطلبات الساخنةَ وينادي عليها ويتبادل مع الزبائن كلمات لاذعةً أو إلى صاحب فرن الخبز العصبيِّ الذي لا يكفّ عن السّباب ورمي يمين الطلاق، منشغلاً بهذا العالَم الغريب عنّا؛ وقد اعتدنا على أن نسكن بين أهلٍ، وهنا مدينةٌ لا نعرفها ولا تعرفنا، هذا العالم الغريب الموحش لي، ولتلك التي لا تعرف الصَّخَب ولا اللّعان ولا الفظاظةَ، الكتومِ التي كانت تخبِّئ فرحها وحزنها.

ظللْتُ مؤمّلاً أن تُفيقَ أختي من غفلتها وألاّ تتوازن بيني وبين هذا الغريب الذي أخذها منّا، وأن تلفظه والمدينةَ وتلتفت لي وحْدي، وتعود معي لبيت العائلة، والمصطبة الداخلية،

وللعُلّية، وللهداهد التي كانت تلتقط الغلال في حوشنا، أتذكرينها الهداهد؟ طبعُها السّترُ والإخفاء، وكانت تألفك أنت وحدَك، ولا تهرب إذا ما خرجتِ إليهن حتى حين كانت تخبِّئ بيضها، كأنك منهنّ!.. عودي؛ فأنا أنا، وأنتِ أنت، ولا بيت إلاّ بيتُنا، فلمَ نتغيَّر؟!.. وصبرتُ منتظراً إفاقتها طويلاً.

بعد ستّة أيامٍ، مرّت وهي تتوازَنُ بيننا، وكلٌّ منّا في عينَيه شيءٌ عن هذا الذي يدور، وهي المسكينة كان عليها أن تتحمَّل صامتةً، وألاّ تُغضب أحداً، سواءٌ أنا الطفل الصغير، أو ذاك الطفل الكبير قريبُنا، اللذان يتنازعانها عاطفيًّا.

حتى رضي كلٌّ منّا بنصيبه، أدركتُ أنا أنّ له منزلةً أكبر ممّا كنت أظنُّ في اليوم الأول، عندما تمنَّيت أنْ تنكره تماماً وتعود لي وحدي، إنه الزوج!. وأدرك هو أنني ضيفٌ، وأنني طفلٌ قبل أي شيء. أدركَ هذا وسلَّم به بعد أن سمعتها تردّ عليه بلطف لمّا قال لها: الولد يغار مني!:

- أستنزل بعقلك لعقل طفلٍ!.. هذا طفلٌ صغير..

صفعتني كلمةُ (طفل)، وكرهتُها هذه الكلمة، كأنّني لأول مرة أسمعها تقال عني، وشعرت [illegible] ورغبة في البكاء. ولم تعطِني عيناي إلاّ القليل، هناك في الشُّرفة. ثمّ مسحتُ الدمع، وشرعتُ في تقبُّل الأمر الواقع، وأنا على وجه سفر.

رضينا سويًّا، وهو شعر بأني مغادرٌ بالغد، فأسرف في تدليلي وأُعطياته، حتى لا أحملَ معي انطباعاً سيئًا عنه قد أحمله للأسرة. وربّما صفا لي هو أكثر مما صفوتُ له؛ كيف أصفو وقد أخذها للأبد؟! وسأعود بدونها غدًا معلناً هزيمتي أمامَهُ، بل أمام زوج.

انتابتني نوبةُ قلقٍ بعد منتصف الليلِ رُغم عذوبة النوم في البرد الشديد، قلق المرتحلين، سمعت هسهسةً تصدر من الصالة، كأنّها حديثٌ خافتٌ جدًّا، لكنّ الليلَ حملَهُ. غلبني الفضول، واستفزتني شهوةُ المعرفة. وظلّ الفضول والكسل يتنازعانني، حتى قمت متثاقلاً من تحت اللّحاف الثقيلِ، متشوّقاً لأعرف فيمَ الهسهسةُ بعد منتصف اللّيل. وأدرتُ مقبض الباب ببطء وحذرٍ متجنباً أن أحْدثَ أيّ صوت، وسحبت البابَ شيئاً قليلاً، وأخرجت منه رقبتي وحدها، وأسندت خدّي عليه. وزممتُ شفتيّ، ورفعت حاجبيّ: وشعرت بنوعٍ إثارةٍ مما أرى:

كانت واقفةً تتهجّد وفي يديها المصحف تقرأُ منه، وأنا عن يسارها أطلُّ من الباب المفتوح قليلاً ولا تراني، ولو كنت قبالتها ما أظنها قد تلاحظني. طيرٌ بريءٌ أرّقه السهاد في الضوء القليل والغمام، وإسدالُها الفضفاض واسع الكمّين، فإذا رفعتْ يديها لتكبير ثم أخفضتهما، كانت كأنها طيرٌ أقام الليل يجنّح

مسبِّحا لله {الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}. والصالةُ غمرها ضوءٌ غيرُ الضوء، وفاحَ فيها عطرٌ ليس كالعطر، وغشيتنا السكينة، وشعرت أنني أُغسل بالبَرَد.

انسحبت إلى الغرفة وأنا أنشجُ مثلَها وأكتم صوتي وبكائي كما تكتم، وذقتُ حلاوة الإيمان من قبل أن أعرف ما الإيمانُ، ووضعت رأسي وأنا أشعرُ بأني خفيفٌ جدًّا ومرتاحٌ تماماً وراضٍ كلَّ الرضا، وقد أدركتُ ساعتَها فيم كان يُسرَج القنديلَ ليلاً بالعُلّية والناس نيام، الآن عرفت سرَّك، كان لله خبْءٌ واطّلعتُ عليه، وسأحدِّث به.

استيقظنا جميعاً مبكراً في هذا الصباح الشتويّ. وأعدّت لنا أكواب الشاي بالحليب، وأخذنا نغمس فيها (البقسماط) ونحن جلوسٌ على الأرض، وأنا أراقب البُخار الذي يتصاعد من أفواهنا، وأراقب الصمتَ والعيون، وهذه البسمةَ العجيبة التي ثبتت على وجه أختي في هذا الصباح، وأنا في كنزتي الصوفية التي يكسوها حولَ الرقبة فراءٌ كثيفٌ، وتحتها طاقم النوم من (الكستور)، وهذه الطاقية الصوفية تغطي أذنَيَّ اللّتَينِ لسعَهما الصقيع.

قليلاً، ودخل هو الحمّام وخرج مسرعاً يلبس في عجالة ليتزلَ لأوّل يومِ عملٍ بعدَ زواجه، أمّا هي فدخلتْ لتستحم،

وأنا جلست على الأرض وقد خبّأت نفسي بالبطانية إلاّ وجهي الذي يبدو منها، وقد احمرّت وجنتاي تماماً. ناداها أنه نازلٌ الآن، وذهب إلى باب الشقّة وفتحه، ثم أغلقه بعنفٍ وهو بالداخل محْدثاً صفقةً عاليةً، لم يَخرج... التفتَ إليّ، وغمز لي بعينه الساذَجة، وتوجّه إلى خزانة الملابس وفتحها، ثم نظر لي ووضع إصبُعَه على فمه لأسكُتَ، وطلبَ منّي أن أتناومَ مكاني، واختبأ خلْف ملابسها، وأخذ بيديه درفتَي باب الخزانة وردَّهما. وأدركتُ أنه يعدّ لها دعابةً ثقيلةً.

خرجتْ حبيبةُ القلب، تمشي على مهلٍ، فأسندتُ رأسي على الحائط خلفي وأرخيتُ جفوني قليلاً ممثّلاً للنوم.. كأنّي أراها الآن أمامي. خرجتْ ترتدي البُرْنُسَ الأبيضَ، وخرجَ معها البخارُ، أمالتْ رأسها على جانب، فتجمّع شعرُها في ناحية، وأخذتْ تضربه بيدها لتنثر منه الماء. كنت أودُّ أن أناديَ وأشيرَ لها لأفسدَ مفاجأته، ولكنّ شيئاً ما عقدَ لساني، فتركتُ الأمور تأخذ مجراها؛ خوفاً من أنْ أفسدَ اللعبة.. أخذتْ تقتربُ شيئاً فشيئاً وهي تبتسم لي، وأنا أبدو أمامها وكأنّي نائمٌ في جلسَتي، وقلبي الصغيرُ يتحرّكُ استعداداً لوقْع الدُّعابة، حتى وضعتْ يدَها على باب الخزانة لتأتي بملابس، فخرجَ لها خبْءُ الشيطان وقفز في وجهها وقال: ها..!

فشهقتْ شهقةً عظيمةً، ووقعتْ على الأرض. ارتمى عليها الرجُل يحاول أن يُفيقها، وهو ينادي فيها بصوت أحناهُ النّدمُ، ثمّ أخذَ يهزُّها ويصفعُها. و أنا انخلع قلبي وتقافزَ في صدري، وبللتُ ثيابي من الفزع، وجفّ حلقي، وثقلتْ رجلاي فلم أستطع أن أقوم، وحاولتُ ثمّ لم أستطع أن أقوم، ثم إني حاولتُ ولم أستطع، فأخذتُ أهز دماغي عاجزاً، كمن ضُرب على أمّ رأسه.. أخذَ يصرخ بعد أن وضعَ يده على معصمها ليجسّ نبضها:

- ماجدةُ ماتت.. ماتت.

لم أشأ أن أصدّقه، قمتُ بصعوبةٍ وخلّصت نفسي من البطّانية التي شعرتُ من انهيار أعصابي وخوارِ أعضائي أنها شبكةٌ معقّدة، وأخذتُ ألمس وجهَها وأنا أبكي: قُومي يا ماجدةُ.. قومي.. حرام عليكِ..! قومي.. قومي.

ثم انهرتُ وخبأت وجهي في وجهها وشعرِها طويلاً. بلّل شعرُها وجهي، وبللتها دموعي.

غاب الشتاء هذا، لم يبقَ منه إلا تلك الخيالات، وصورةُ أمي المسكينةِ التي أتتْ ضحًى، وكادت أن تُجنَّ وهي تنظر لبنتها العروسِ الميْتةِ وتقول وهي تضحك:

– مبروك.. مبروك يا ماجدة.. اللهم صلّ على النبي.. قمرٌ.. قمر!!

حتى اصطكّت أسنانها، وارتعدت ركبتاها، فحملتها امرأتان من جناحيها حتى أضجعتاها وهي بين العقل والجنون.

مضَتِ السّنونُ، وعاشَ معنا هذا الجرح الذي لا يندمل من دعابة، دعابة روَّعت أختي فقتلتْها، فكسرتْ ظهورنا. وتكهَّل الأطفالُ وشابَ شعرُ الصَّبايا والفتيان، ومات من مات، ولازالت ماجدةُ كما كانت، تطل عليّ شابّةً من ممرٍّ يغشاهُ الضبابُ وهي تُميل رأسَها وتضربُ شَعرَها بيدِها باسمةً.

طوفان مهند



بنتُ الخامسة عشرة في حُجرتها وحدَها، وجهازُ التسجيل على أغنية تافهة، وعلى الجدران الأربعة صورٌ لمطربينَ شبّان، أحدُهم يتدلّى من أذنه قرطٌ رقيقٌ. وكانت ترقص بحماسةٍ وانهماكٍ، ولم تسمع الصراخ خارج الغرفة.

كانت الأمُّ في المطبخ، تعدُّ كعكةً، وتثرثر في ذات الوقت على الهاتف الجوال مع إحدى القريبات عن عروس العائلة التي ستُزفُّ اليوم، وكيف تعرفت إلى هذا العريس (اللّقطة!)، وعن قيمة الفستانِ الذي سترتديه في الحفل الساهر الباذخ، وعن الطاقم الألماسِ الذي اشتراه العريسُ لعروسه.

- عقبى لابنتكِ.

- في حياتك يا حبيبتي، البنتُ لازالت صغيرة.

- أخائفةٌ من أنْ يقال عنكِ جَدّة؟

- ومن رآنا سويًّا وظنّ أنها ابنتي.. كل من رآنا ظنها أختي الصغيرة.

... وتبادلنا القهقهات.

غير أن الأمّ اضطُرّتْ للاعتذار عن إكمال المكالمة، وهرولَتْ إلى حيث الصراخُ بين زوجها وابنها، ابنِ السادسة عشرة.

كانتْ يدُ الأب الغليظةُ قد انقضّتْ على كتف (حمادة) وهو يكتب شعراً غزليًّا في حجرته، وأمامه وردةٌ في مزهريةٍ صغيرة. سحبَ منه الورق، وأخذتْ عيناهُ تتدحرجان على الأسطر بسرعة وهلع.

قليلٌ.. و قرأ الأبُ الشعرَ العاطفيَّ الساذجَ لابنه، وكرّرَ سؤالاً واحداً عدّةَ مراتٍ، وهو يدقُّ بتوعُّدٍ وعصبيّةٍ على المنضدة:

- لِمَن تكتب هذا الكلام؟! لمن؟

أنكرَ الفتى أنْ يكونَ غزلُه في فتاةٍ حقيقيةٍ من لحمٍ ودمٍ، إنّما هي خواطرُ جاشتْ بها نفسه فعبّر عنها.

- هل فسدتَ وتعلّمتَ الحبّ والمساخرَ يا معرَّة العائلة؟! مَن هذه البنت؟

- أبدا، والله، مجرّدُ كتابةٍ، صدقني.

- اخرس يا كذّاب.. جئتَ عند أواخرِ الطريق وستركن!

.. وانفلتتْ أعصاب الرجل وصفع ابنه، وعلا صوتُهما، والابن يبكي، وكفّه على خدِّه، ويحتجُّ على أنْ يُصفع وهو في هذه السنِّ، وبدون حماقةٍ كالتي يرتكبُها الشباب في مثل عمره.

حينها وصلت الأم منقطعة النفس:

– ما هذا؟ صوتكم واصلٌ للشارع!

وأفهمها الرجلُ – في عجالةْ – تلك المصيبةَ التي اكتشفها، وهو يحاولُ بعصبيته أن يفلتَ منها ويهجم عليه مرّةً ثانية. سحبَتْهُ بعيدا وهي تربتُ على صدره تهدّئه، وهي في ذات الوقت تَنْعَى على (حمادة)، الطبيب المرتجى، أنْ خيّب رجاءَهما فيه.

– ماذا جرى عليك يا (حمادة)؟! السبت القادم تُستأنف الدراسة، وأنت تفكّر في الشعر والعواطف؟!.. خسارة.. خسارة!! (قالتها بصوتٍ ملؤه العتاب).

حُجرةُ البنت لازالت مغلقة، يصدر منها درداب [1]، فيما جلس (حمادة) بمفرده حزيناً في غرفته، وذاك الدرداب الذي يأتيه من حجرة أخته يدقُّ على جانبي رأسه.

.. يراجع معاناته معَ أبويه، اللّذَين قد قرّرا منذ زمن بعيد أنْ يكون دائماً الأولَ على مدرسته، وأن يكون طبيباً في يوم ما؛ فعند العم ابنةٌ طبيبة، وعند العمة طبيبان، وأبوه ليس أقلَّ من أخيه وأخته، فأحكم الأبوان الخطـ[illegible]ـه.

الدرداب : صوت الطبول وأجهزة تضخيم الصوت

ومن ضمن قائمة طويلة للحماية كان عليه ألاّ يقرأ إلاّ كتب المنهج الدراسيّ، ولا يكتبَ إلاّ على سبيل المذاكرة، وكـذلك يُمنع منعاً باتًّا جلبُ أصدقاء للبيت، حتى لو كـانوا مهـذبينَ ومتفوقينَ مثلَه، ولم يتبقّ لهما إلاّ أن يفتّشا في أحلامه عن شيءٍ مُريبٍ قد يُعيقه عن أنْ يكون طبيباً.

قام بعد قليلٍ متثاقلاً، وأطفأ النور، ونامَ مهدود القوى بعد أنْ وضع الوسادة فوق أذنه، متخلّصاً من قرع الطبول البربريـة الذي يبدو وكأنه قادمٌ من حفل زنجي بالغابة.

في المساء..

أيقظته أخته بإلحاحٍ، لكي يلبس، وينزل معهم لحفل عـرسِ بنت العائلة.

دخل يغتسل، ولازال في رأسه شيءٌ من طنينٍ. وانتهزَ الأبُ الفرصة، وغاب في حجرته قليلاً؛ يفتِّش عـن شـريط أغـانٍ عاطفية، أو دبلة فضة، أو منديلٍ حريريّ، أو (دبـدوب)، أو لوح (شوكولاتة).. أيّ شيء مما يَحتفظ به الـشباب هديـةً لعلاقةٍ عاطفية. ولم يجد شيئًا أبداً، فانقشع كثيرٌ من وساوسه.

خرجَ الفتى ولبسَ ملابس السهرة بغير حماسٍ، ومرّ من أمام أبويه، اللّذَينِ لم يُعيراهُ التفاتةً، وكأنّهما لم يُفيقا لحينهما مـن

صدمة الخواطر الغزلية لفتاهُما طالب الثانوية المتفوق. وعنـــدما اعترض برفقٍ على الأصباغ التي وضعتْها أخته على وجههـــا، صرخوا فيه حتى انكمش:

- ما شأنك بها؟! انشغلْ بنفسكَ أنت (قال الأب).

- أتريدُ لها أن تذهبَ لحفل عرسٍ مثل خفير؟! (قالت الأم).

في مساء الحفلة التي أُقيمتْ في إحدى العوّامـــات النهريـــة الراسية قُربَ شاطئٍ هادئ جميل، تكتنفهُ الأشجار والزهـــور، يفصلُها عنهُ جسرٌ خشبيّ يمتد في الماء، كان (حمـــادة) يجلـــس وحيداً بلا أنيسٍ إلى الطاولة التي يجلس إليها أبواه وأخته وعمّه وخاله، كان يلتفت حولَهُ لمزاح أقاربه الشباب الصغار، وودّ لو استطاع أن يسامرهم، ولكنه خشي أن يحرجَهُ أبواه، خوفاً عليه من الاختلاط بشباب أقلّ انضباطاً وأصعب قياداً .

عندما أمسك مقدِّمُ الفرقة مكبرَ الصوت وأعلن - وكأنّـــه يلقي على الحاضرين أعظم المفاجآت - عن فقـــرة الراقـــصة، سُرعانَ ما دخلت على أطراف أصـــابعها بـــسرعةٍ ونـــشاط، والتهمتها عيونُ الفتيان والكهول، تراجـــعَ (حمـــادة) للـــوراء بكرسيّه خجلاً، حتى جلس هناك بعيداً عند مدخلِ الحفل.

وهناك استدار بكرسيّه، وأعطى ظهـــرَه لكـــلّ الحـــضور وللراقصة، ووضع وجهه بين قبضتَيه، وأخذ يحدِّق في الأرض،

وقد تقوّس ظهرُه. وتمنّى التفاتةً أبويّةً عفويةً إليه، فيُسرّان ممّا فعل، من انسحابه من أمامِ المسرح، وقد خالف في هذا شباب العائلة المولَعين، وشيوخَها الذين خرجوا عن وقارهم، فقد تجمهر الكلُّ هناك أمام الراقصة.

ثم تخيَّل في صمته التفاتةً جماعيّة من كلّ الأباء والأمهات من العائلة، أعطوا ظهورهم للراقصة، والتفتوا إليه، للفتى العفيف الذي غضّ طرْفَهُ عن اللّحمِ الرخيص، الوحيد الذي لم يستخفَّهُ الطربُ ولم تلعب به المعازف.. كلماتُ إعجابٍ تتناثر حوله، تصفيق، تصفير، والراقصة تنسحب معترضة على هذا التجافي. حتى اقشعر بدنه، وهو يرى من ظهره أبويهِ وقد تبلّلتْ أعينهما بالدموع غبطة وتقديرا وحمداً لله.

اشتاق لأن يرى هذا بعينيه: التقدير! التقدير!

يلتفت بوجهه، يُصعَقُ، يديرُ الكرسيّ،ينحسرُ حلمُ اليقظة، يفركُ عينيه، يفرك عينيه مرَّةً أخرى، إنّها هي ولا غير، تلك التي هناك على المسرح: أخته! قد شدت انتباهَ الكل، وسحَبَت البساطَ من تحت الراقصة وأربكَتْها، وللسنِّ أحكامٌ. وطاولةُ الأهل تضجُّ بالتصفيق، الأم وكل محارم الأخت ، الأبُ والعمُّ والخال والجدُّ،وقد ارتفعت حواجبُهم واحمرّتْ وجوههم وامتلأتْ فخاراً!

شعر بالحياء الشديد، وقد رأى – وهو يقترب ببطء – نظرات حيوانيةً في عيون البعض من شباب العائلة، وإنّ هذا الذي يُنهش بالنظرات لَجسدُ أخته!

حاول الهروب، ولكنّ الباب قد أُغلق. مشى بجانبه وظهره للناس، يكاد أن يقع على الأرض من الغَيرة والحنق واليأس، كاد أن يعثر في سجادةٍ في مشيه الذليل، واصطدم بنادل الحفل فقلب كؤوسَهُ المليئةَ بالعصائر. يمشي مشياً شديد التعثر كأنه معاقٌ يكابر وينكر إعاقتَه. يتعبُ، يختنق، يبكي وحدَهُ، ولا النشيج يُسمَع ولا الدموع تُرى في هرج الحفل. يجدُ أمامه سلّما ضيقاً حلزونيًّا لأسفل، ينزل منه ببطء، حتى يدلف إلى غرفة صغيرةٍ خافتة الضوء تحت ضجيج الحفل وقرع الطبول والزغاريد الوحشيّة. غرفةٌ كأنها مخزنٌ، تطل على الماء، ولا يرتفع سورها عنه إلاّ شبراً واحداً لا غير، وجد فيها أشياءَ لم يتبيَّنها، وأدواتِ مائدة، وعرائس صغيرةً من زجاجٍ تُزيّن بها الأرفف وما شابه، وكذلك محارم [٢] من ورق.

جلس يحدق في صفحة الماء أمامه، وقد شم حوله رائحة عفونةٍ خفيفة، ورائحة طحالب ، وش ً قليلاً من رائحة الخَثَى

المحارم : المناديل

الذي تُسمَّد به أصصُ الزرع في مشاتل طرح النهر. وقــد دار رأسهُ وتحركتْ بطنه وأوشك على التقيّؤ، فانكفأ إلى المــاء مستعدًّا للقيء القادمِ لا محالةَ، وإنارةٌ صفراءُ تنعكس على الماء، وهواءٌ، وصوتُ المغنّي كعواءٍ عن اللّيل والعين، كلُّهــا تحــرِّك بطنه.

يمرُّ زورقٌ سياحيٌّ كبيرٌ سريعٌ بالقرب من العوامة بطريقــة خرقاءَ، يُحدثُ موجةً عالية،تضرب وجه الفتى المنكفئ وتغسلُ ثيابه ويشرق ، وتقتحم الغرفة، وقبل أن يفيــق مــن هــول الصدمة، وجد هذا الطوفانَ الصغير ينحسرُ إلى خارج مثل يــدٍ قبضت على شيء في عشٍّ وارتدّت مسرعةً؛ انحسر الطوفان، وقد احتملَ

من الغرفة عرائس زجاجيةً، ومحارم ورقيةً، أخذتْ تتــهادى جميعاً على صَفحة الماءِ، وتقيَّأ، فشقّ قيئهُ طريقاً بين العــرائسِ والمحارم.

مرّت سنون، حتى التحق (حمادة) بالفعل بكليــة الطــب، وانتقل (حمادة) لسنة الامتياز، متفوقاً كالعادة، منشغلاً بدراسته كلّ انشغال. وفي يومٍ عائليٍّ حزين، حزينٍ جدًّا، له ضــجّةٌ، ثم طنينٌ، تذكّر كلّ شيءٍ: صفحة الماء المظلمة الــتي انعكســت عليها أنوارٌ صفراء، وضجيج الفرقة الموسيقية، وأعيُن والديــه تنظر لأخته بكل فخرٍ وهي ترقص، والغرفة المظلمة، وما بهــا،

ورائحة الطحالب الصغيرة النابتة على جانب العوامة، والغثيان، والموج والزورق.

كان الوحيدَ من العائلة الذي لم يتعجبْ عندما عادت أخته، بينما مرض الأبوانِ وقعدا سويًّا بالفراش، ينتحبانِ، ويربِّتُ كلٌّ منهما على كتف الآخرِ مواسياً، لقد عادت العروسُ سريعاً، بعد ستة أشهر، لما فُتنت بممثلٍ وسيمٍ ظهر في مسلسلٍ سياحيٍّ (مدبلج)، وعبّرت للزوج عن هيامها به بعبارة نابية، فطلّقها. احتملها طوفانُ (مهند) ووالديها مع الذي احتمله، عرائس زجاجٍ، ومحارم ورقٍ.

جبل الذراق



هذا الصَّباحُ صباحُ الرِّحلة الخَلَويَّة، التِّلميذاتُ ومُعلِّمةٌ يَجلسْنَ في الحافلة الّتي غادَرَت المدينةَ وَمَضتْ في طريق البَرِّ.

هنا الصِّياحُ والضَّجيجُ والنِّكَاتُ والأناشيدُ المأثورةُ في رحلات المدارسِ، ولَمْ يتشتَّت في هذا الصَّخَب الصَّاخب هؤلاء اللاَّئي غِبْنَ في أحاديثَ جانبيَّة، ولاَ مَن يتمّمنَ النَّومَ وقدْ أرْخَيْنَ السَّتائرَ علَى النَّوافذِ وتَوسَّدْنَ أكتافَ بعضهِنَّ البعضَ.

في الطَّريقِ الصَّحراويّة الّتي تشقُّها الحافلةُ كانَ كلُّ شيءٍ هادئاً وَرَصيناً وَيَبْعَثُ على الشُّعُورِ بالأَمْنِ، رجالُ شُرطة في لحان تَتَالَى على الطَّريقِ، ومَناظرُ ساكنَةٌ تطَّرِدُ بطُولِ السَّفَرِ: سُحُبٌ بيضاءُ مُبعثرةٌ على صَفْحَة السَّمَاء، كُثبانٌ رَمليّةٌ عتيقةٌ تبدُوْ وكأنّها تَستُرُ خلْفَها عوالِمَ غامضةً، وأشجارٌ رعويَّةٌ مُتناثرةٌ تزيِّنُ المشهدَ في السُّهولِ الرَّملية الممتدَّة، والسّوائمُ والظِّباءُ تَرْتَعُ في مراعي الله؛ هذه الطريقُ، انسجَمَ فيها حالُ البَرِّ بحالِ السَّماء.

فيما كانَت الحافلةُ تَحْبَلُ بخليط: صبيانيةٌ لاهيةٌ، وتلقائيَّة، ووداعةٌ، ولكنّها أيضاً قَد انسجَمَ بهاَ الحالُ، فَلا كُلْفةَ فيها على العُمُومِ. لا شيءَ غريبٌ بينَ الصَّبايَا، ولا حرَجَ، والعيونُ البريئةُ

تَضْحكُ وتتجوَّلُ لا تَرصدُ شيئاً ولا تَهربُ من شيءٍ، ولا تَقعُ على شيءٍ إلاّ عَفْواً؛ إلاّ شيئاً واحداً بَدَا غيرَ مألوفٍ لَواحدَةٍ من البنات، وَحْدَها تلْحَظُهُ، ووَحْدَهُ عكَّرَ عليها صَفْوَهَا، كحَوْضِ نَهْرٍ صَغيرٍ نزلت البناتُ إليه يغسلْنَ سيقانَهنَّ فيه ويَملأْنَ الجرارَ في سعادةٍ ومُزاحٍ، وواحدةٌ من بينهنَّ فقطْ ماتَت ابتسامَتُها عَلَى وَجْهها، أخذتْ تُدقِّقُ في شيءٍ، شعرَتْ أنّ هذا الّـــذي يُـــشبه تجمُّعاً من الوَحْلِ الظّاهر في وسَط المياه الضَّحْلَة المُوْحلَة بعيـــداً قليلاً، ربّما يكونُ رأساً لتمساحٍ كامنٍ يترصَّدُ الصَّبايا، فأخذَتْ تدقِّقُ وتُعيدُ النَّظَرَ؛ فلعلَّها وَهَمَتْ وانْخدَعَ بـــصَرُها، وكلَّمـــا حدَّقَتْ تَوثَّقَ إحساسُها بأنّهُ تمْساحٌ؛ لقد ذَبَلَـــت ابتـــسامَتُها البريئةُ من تلكَ النَّظرات، الّتي تنظُرُها هذه الّتي يبدُوْ عليها شدَّةٌ وجدِّيّةٌ، وتَجْلسُ خَلْفَها بعْدَ ثلاثة صُفوفٍ من المَقاعد.

كانَت الصَّغيرَةُ مُسْتَديْرَةً تَتبادَلُ الحديثَ مـــعَ زميلَتـــها في المَقعَد الّذي يَليها منَ الخَلْف، في شَذَرات ممّا تتحـــدَّثُ بهـــا البناتُ إذا اجتمَعْنَ. وكانتْ كلَّ حين تَخْتَلسُ النَّظَرات بتعجُّبٍ إلى هذه الّتي ثبَّتَتْ نظَرَها تَماماً علَيها بعيَنينِ عَسَليَّتين ذئبيَّـــتينِ، وتَرميها بنظرات خَشنَة ومتوحِّشَة وفوضويَّة.

كانت الصَّغيرةُ تعرفُها شكْلاً ولَمْ تتحدَّثْ إليها من قَبْـــلُ، فَهيَ طالبَةٌ في الفَصْلِ المُجاورِ لفصْلها، كانت تَلْحَظُ فيها قُـــوَّةَ شخصيَّتها، وثقَتها بنفسها وحَزْمَها، وهذه الهَيبـــةَ لهـــا بـــينَ التِّلميذات. أربكَتْها تلكَ النظرَاتُ الّتي تَخْترقُهـــا، وشوَّشَـــتْ

علَيها استرْسالَها وتَركيزَها في الثَّرثَرَة، ولكنّها تَجاهلَتْها قــدْرَ جهدها. حتّى خَتَمَتْ حديثَها معَ صــاحبَتها، واســتدارَتْ، وقَلْبُها يَخْفقُ بعُنف، وفرَكَتْ يَدَيْها في بعضهما البعض وقــدْ سَرَتْ في جسمها قُشَعْريرَةٌ وبُرودةٌ، وأخذتْ عَيناها تَزيغــان يَمْنَةً ويَسْرَةً بلا داعٍ.. ثمّ بعْدَ قَليلٍ صَرَّتْ أسنانها كأنها تَحــتجُّ على انتهاك، وتتحفزُ من إهانَة.. أوْ تُقاومُ سُروراً باطنيًّا عَجيباً فاحَ منها رغماً عنها، و بَدَا لها مُحرجاً وصادماً فأخذَتْ تَجْمَعُ لهُ عَزمها لتئدَهُ وليداً.. ثمّ انكَمَشَتْ ونامَتْ.

وَقْتَ الضُّحى، كانت الحافلَةُ قدْ وَصَلَتْ، والبَنَاتُ أخــذْنَ يَنْزِلْنَ بكُلِّ مرَحٍ وخفّة، يَدْفَعْنَ بعضهنّ البعضَ عند بابَي الحافلَة مُتعجِّلات، والصّغيرةُ اسْتَأْنَتْ لتَتَجنَّبَ المُزاحَمَةَ، وقد شــعرَتْ برَبكَة مَنْ يُراقَبُ، حتّى نزلتْ لَمّا فرغَت الحافلَــةُ. وَكــذلكَ اسْتأْنَت الأُخرى الشّاذّةُ المسترجلة ، ونَزَلَتْ خلْفَها.

وانطلَقَ البناتُ، وملأْنَ هذا المكانَ الهادئَ ضــجّةً ومَرَحــاً ونشاطاً. وانشَغَلَتْ كلٌّ منهُنّ بشيء: بعضُهنّ قدْ غبْنَ في المــاء يسبَحْنَ، وفريقان يُطاردَان الكُرَةَ بأقْــدامهنّ، ومَجموعــاتٌ تتمشّى على السّاحلِ. وهؤلاء فرشْنَ سُفْرَةً وبــدأْنَ يتنــاولْنَ وجبةَ الإفطار، وهنَّ يصحْنَ على الأُخريات بأنْ يلعبْنَ الكُــرةَ بعيداً. وهؤلاء يقرَأْنَ، وتلكَ تكتُبُ، أمّا المعلّمةُ فنامتْ تَحــتَ مِظلّةٍ ووضعَتْ على وجهها قبّعةً من خُوصٍ.

نادينَ على الصَّغيرة لتقفَ حارسةَ مَرْمى، فحرَستْ قليلاً حتى ملّتْ واستأذنتْ، فأبدَلْنَها. ثمّ نادَتْها تلكَ الّتي تكتُبُ، وأشارَتْ لها بالقَلَم الّذي بيَدها - مَهْمُومةً - إلى جبلٍ صغيرٍ في وسط الماء، تَشْعُرُ أنّهُ سيُلهمُها قصةً. وعلقتْ أعينُهُما وقتاً بذاكَ الناتئِ الصخريِّ القبيحِ. ثمّ قامتْ فاترةً بعدَ أنْ أيَّدَتْها في أنّه يبدوْ مُلهماً بشعاً.

ثمّ انتحَتْ جانباً، وأغْلَقَتْ عينَيْها، وهيَ تتمنّى ألاّ يطلُبَ منها أحدٌ شيئاً، حتى تتفرّغَ لإسعادِ نفسها والتأمُّل.

بعد قليلٍ، شردَتْ ظَبْيَةٌ، لـمّا امتلأَ صَدْرُها من نسيمِ البحرِ والْيُوْدِ، وغمَرَها خَدَرٌ ناعمٌ من صوتِ وَشيشه والهواءِ الطَّلْقِ؛ مشَتْ وحدَها ساهمَةً، كأنّها تلبّي نداءً خفيًّا، مشَتْ حافيةً تُجاهَ الشّمسِ النّاعمةِ والأفقِ.. راحتْ بعيداً.. حتى توارَتْ تَحْتَ جُرْفٍ، وجلستْ هناكَ. أخذَتْ تَبني بُيوتاً برمالِ الشاطئِ مثلَ طفلةٍ، والهواءُ يلعبُ بشَعرها الّذي أرسلَتْهُ. ظلّتْ تبني وتلهُوْ بنُعومةٍ وهيَ تحدِّثُ نفسَها، حتّى فاجأها صوتٌ أجشُّ يناديها باسْمها، فاقشَعَرَّ بدَنُ الصَّبيَّة، وشعرَتْ وكأنّما اجتاحَتْها ريحٌ باردةٌ أثلجَتْ أطرافَها. وبنصْفِ استدارَةٍ شديدَةِ البُطْءِ رأَتْ وراءَها ظلاً واقفاً، تَلْحَظُ فيه يدَينِ موضوعتَيْنِ على الوسطِ، فرجعَتْ ببطءٍ أيضاً عنِ استدارَتها، وتركَتِ الرَّمْلَ من

كفّيها ينسابُ، ونظرَتْ في الأرضِ، وقلْبُها يكادُ أن يقفزَ مِن صدْرِها.

تَحتَ الجُرْف، وعلَى قريب من موجِ البحرِ وزَبَدِه، والقواقعِ، مضَى الحديثُ بكُلْفَةٍ، كأنّهُ في البَدْءِ مِن طرفٍ واحدٍ؛ من قلّة كلامِها وخجَلِها وصوتِها الهامسِ حينَما تردُّ، تَسْمَعُ لحَديث مفتَعَلٍ، وتلافيْفَ في الحوار، وكلمات تَخرُجُ من الفَمِ طيّبَةً ثُمّ تتغيّرُ و تُريْبُ، كَفاكهَة وُضعَتْ سليمةً ثم نزَّ منها الدُّوْدُ، وغَيَابَةٌ مُوحشَةٌ ودُوَارٌ؛ ثمَّ تعَريضٌ طويلٌ بـ(الصِّبيان)، ومعرفَتهمُ الخَطرَةَ الّتي قدْ تُورِّثُ البناتَ ندامةً وعاراً، وعَنِ السّتْرِ الّذي لا يأْبهُونَ لَهُ عندما يعرفُونَ بنات النّاس... مُراوَغَةٌ طالَتْ.. ثمّ هذا حصارٌ واسعٌ لطيفٌ، أخذَ يضَيقُ شيئاً فشَيئاً، ويَخشُنُ درجةً بعْدَ أُخرى.. والصّغيرةُ أعاقَها لُطْفُها وقلّةُ حَزْمِها والتردُّدُ، وصَعْقةُ الفَجأَة.

بعدَ ساعة، كانتْ كلّ المجمُوعَة قد التمّتْ علَى الشاطئ إلاّ اثنتَيْنِ، ها همَا ذاهبتان معاً للنُزُل، كَانتْ إحداهُما تمشي متردِّدةً متعثرةً في يد الأُخرَى.. ويلَك اهرُبي.. يا حسْرَةً علَى ظَبْيَة شاردة.. مضَتْ معَها كمنوَّمَةٍ.. وفيما قبْلَ البِنايةِ كانتْ تَمشِي بلا وَحَلٍ!

السُّكُونُ يَحُفُّ هذا البناءَ البسيط، بينما كانَ الخارجُ يضجُّ بالبنات، يضرْبنَ الأرضَ بأرجُلِهنَّ مشجّعات، مصفّرات مصفّقات، وهُنَّ يتطلّعنَ إليهما.

كنّ يتطلّعْنَ إليهما في السَّماء؛ فوقهنَّ طائرتـــان ورقيَّتـــان جَميلتان، مُزركشتَان، بَهيَّتا الألوان، يذيِّلُهُما ذَيْلان طـــويلان أنيقان، ويُمسكهُما خَيْطان وثيقان. والهواءُ القـــويُّ حَمَلَهُمـــا عالياً، حتّى كأنّهما ستُلامسان السَّحابَ. ولا زالَ الخيطُ يُرسَلُ والبَكَرتان تُلفّان مَحمومتَين على الأرضِ تبعثان الخَيْط، فتذهَبُ الطَّائرَتان بعيداً بعيداً، كريمَتَان مكرَّمتان. حتّى أرسلتِ البَكَرتان كلَّ الخَيْط، فازدادَت الطَّائرتـــان سُـــمُوًّا، وصـــارَ الخيْطـــان مشدُوْدَين كأنّما أيديْ البنات تشدُّ من ناحية والسَّماءُ تشدُّ من النَّاحية الأُخرى، والقُصاصاتُ والـــذّيْلان والأَجنحَـــةُ كلُّهـــا انتفَشَتْ على المَدى، في طائرَتَين تسْبَحان في الهَواء.

والبناتُ يرْقُبْنَ تلكَ السِّباحَةَ في الهواء من أسفلَ في سعادَة، واستَمَرَّ هذا الحالُ مُدَّةً. وإذا بالطائرتين يَمُرُّ بهما فجأةً تيَّـــارٌ غويٌّ وجارفٌ! أخذَ يهزُّهُما، ويُراقصُهما على غرَّة؛ جفلـــتْ منه واحدَةٌ، والأُخرى حَميَتْ، ولعبتْ بذَيْلها. حَامَتْ حـــول الجَفْلَى، وارتعشَتْ مستعرضةً، ودَنَتْ، أخذَتْ تَنْقُرُها وترتـــدُّ، تنقُرُ بجسارة وترتدُّ، تنقُرُ وترتدُّ. ثم شرَّقتْ هذه، وتلكَ غرَّبَتْ، بدَّلَتا مَقْعَدَين لهُما في الأعالي، فتقاطعَ الخَيْطان مثلَ سَيْفين قـــد احْتَرَبا! ولفَّ أحدُ الخَيْطين حولَ الآخر، فانعَقَدَا من وَسَـــط. والطائرتان تَهتزّان، تضطَّربان، والبناتُ على الشاطئ صِـــحْنَ صيحات الأسَف، يحاولْنَ ولا فكاكَ.

دارَتا حوْلَ بعضهما دَوْرات عنيفةً كأنّهما في قلب إعصار، تتخبّطان، تتشنّجان؛ رعشَتُهما والتخبُّطُ ينْزعان مـن زوائـد الذَّيْلين والأجنحة الورقيَّة، هذه قُصاصةٌ سقطتْ وراءَ أخـرى، أخذت القُصاصاتُ الملوَّنـةُ تتـهاوَى بـبطء علـى رُؤُوسِ الحاضرات، كريش طائرَين تشاجَرا في الجوِّ. والطّائرتان تَهويان من عُلوِّهما شائهتَين مترنِّحتَين، بعْدَ أنْ فقدَتا الزِّينَةَ والمِيـزانَ، وتناقرَتا، حتّى مزَّقتْ كلٌّ منهُما من ورَق الأُخرى. واللُّعبةُ ما عادتْ لُعبةً، والرَّقصة ما عادَتْ رقصةً. ثم انقطعَ الخَيْطان سَوِيًّا من حيثُ انعقَدا، فاندفعَت الطائرتان للوَرَاء بعُنْف كبـالونَين هربَ منهما الهواءُ، حتّى ارتطمَتا بنُتوء صـخريٍّ مُخيـف في وسط الماء مثلَ النَّاب، تعشِّشُ فوقَهُ الطُّيورُ الجارحَةُ. وعَلقتـا هُناكَ، وتلطَّخَتا من ذُرَاق الطَّير الذي يغطِّي كلَّ النُّتوء، وقـدْ دفعَ الفُضُولُ الطَّيرَ فتنادَتْ إليهما، للكائنَين الغـريبين اللّـذَين اقتحَما عالَمَها القصيَّ، فعملتْ فيهما بالمَناقير والمخالب فحصاً ولَعباً، وذَرقتْ عليهما ذُرَاقاً طازجاً. وتأرجَحَتا قليلاً مَهينَتَين، ثم أخذَتا تَهويان على الجبلِ من سافلٍ لأسفلَ، حتّى سَـقَطَتا في البحر منكسرتَين تَماماً؛ يشيِّعُهُما صفيرُ الجوارح الهائل، الـذي أخذَ يَخفتُ شيئاً فشيئاً، خلْف هشيم حزينٍ يسْبَحُ بلا نـشوَة. حَملهُما الموجُ كأنّهُ يحملُ جثّتين، في هدوءٍ وحُزن يَليقُ بجنازةٍ، حتّى طرحَهُما على الشاطئ تحتَ أقدام الأبْكار، اللاّئي مَشَيْنَ منكّسات الرّؤوس، وَهَبطَتْ عَلَيهنَّ غيمَةٌ فجأةً،وَمضَيْنَ فيهـا يَقُلْنَ: يا ربِّ، سلّمْ سلّمْ.

مسيخ البخور



آه.. آه.. جسدي مُضَعْضَعٌ كأنّي رقدتُ على الأرضِ بعد معركةٍ عنيفة اهدَّتْ فيها قُواي، مُنبطحٌ، لا أفكّرُ في التقلُّبِ الآن، أيّ تقلُّب؟! أشعُرُ بأنّي أستعذبُ انبطاحي وأستريحُ فيه، ولن تستيقظ آلامي إلاّ إذا ما حاولتُ أن أعتدلَ، فلا اعتدلتُ.

والماضي ضبابٌ سرمديٌّ طويلٌ، ولا أعرف أوّله ولا متى وَلَجتُ فيه؛ ولا آخر له، يتمدَّدُ، هو غَيْبٌ وأنا غَيْبوبةٌ. وذاكرتي معطّلةٌ، لم يبقَ بها شيء يسبق هذا الانبطاحَ هنا في هذا الضِّيقِ العجيبِ الذي اعتدتُّهُ، حفرةٌ، أنا وهي لا يعرفُ أيَ منّا إلاّ الآخر، ولا يعرف فكاكاً منه. تورّطنا سويًا، غير أنّي وحدي أدرك الورطة، ولديَّ فضولٌ لأعرفَ كيف جئتُ إلى هنا، (هنا) الغَيابة البعيدة، فضولٌ أغالبُه وأتغابَى عنه؛ لأنّي لا أعرِف كيف أعرف سرَّ انغراسي هنا.

هنا مثوايَ العجيبُ الذي يضمُّني، المظلمُ الرَّطْبُ، الذي اعتدتُّ رِيحَهُ وهواءه، واعتدتُّ هَدْأته، أقضي وقتًا في تلمُّسِ جُدُره في نشاطي ووَهْني، و يَقَظتي ونَومي، وفي الرِّضا والسَّخَط.

أُوشوِشُ الذّاكرةَ، أهُزُّ عُودَها، ولا فائدة، أُعاودُ الكَرَّةَ، فأذّكّرُ بصُعوبةٍ، أنّي كنتُ رافضًا وحَرُونًا يستوخِمُ المثوى،

أُحاوِلُ أن أتمرَّدَ على هذا الضِّيقِ وأنتهكَه، أنقِّبَ فيه، أهشّمَهُ، ألتهمَهُ. أمَّا هو، فكان مكينًا، هادئًا، مُسَيطراً، فلم ألمسْ فيه ضَعفًا فيتزعزَع، ولا نَزَقًا فيطردني، قَدَرَ عليّ واحتواني تمامًا!

بعدها، وشيئًا فشيئًا، أَنَفَةٌ تليها أُلْفةٌ، اعتدتُ الحفرةَ، والظُّلْمةَ، والانطراحَ فيها للأبد. وتحوَّلتُ من بعد ضَجري إلى راضٍ بالبقاء، مُتلذِّذًا بالدَّعَة والكسلِ وقلّة الحركة، فلا أنا أطلبُ شيئًا، ولا أنا أتحاشَى شيئًا. والوقتُ لا يعنيني، وماذا أعمَلُ به! وزاهدٌ في الخروجِ، بل وخائفٌ منه؛ فمن يضمَنُ لي ألاّ يقتلَني مَن سيحاوِل أن ينتشلَني منها دونما قَصْد، أو يخلَعَ ذراعيَ في يده الممتدَّة إليّ في الظَّلامِ العتيق؟ حتى أنّني كثيرًا ما تخيَّلتُ تلك اللَّحظةَ المرهبةَ: دبيبُ يد صلبة تحفرُ بهدوء وعناية، تتوغَّلُ.. تتوغَّلُ، حتى وصَلَتْ، وقليلٌ من الضَّوْء يتسلّلُ إليّ في وَكْري، فالتصقتُ بالجدران كاتمًا أنفاسيَ أشفُطُ بطني، كأنّه تمرُّ من أمامي يدُ وحْشٍ تعبثُ وتفتّشُ في جَوْفِ الوَكْرِ الذي أختبئُ فيه، أراها و لا تراني.

هذا الخوفُ، الذي يجعلُني متشبّثًا بالثّباتِ والبقاءِ، أمَّا الأمنياتُ، التي تلعبُ بي في بعضِ الأوقاتِ، وتسحبُني بعيدًا،كقَصبة تجري مع التَّيارِ، فلها نصيبُها أيضًا؛ فلستُ دائمًا جَفلاً من خروجٍ؛ أهدأُ، أتكوَّرُ، أسترقُ السَّمعَ في غبطة؛ يسيلُ لعابي في الظُّلْمةِ وأنا أتسمَّعُ للأصواتِ المُبهِجة، أصواتِ أهلِ

الحراكَ الذين ينتشرونَ بالخارجِ، ولا يعرفونَ الانبطاحَ الذي أنا فيه ولَا الصَّمتَ الطَّويلَ: ترحيبٌ، سلاماتٌ، أبواقُ سيَّارات، وباعةٌ جائلونَ، وزخَّاتُ مطرٍ، وساعي بريد، وشجارٌ وزقزقةُ عصافير. كلُّ هذا ليس بعيدًا، إنَّما قريبٌ حَوْلي. وأنا - يا هؤلاء - حيٌّ يشعُرُ بالغَيرة، ويتحسَّرُ على حاله إذا ما تحرَّقَ للنَّعيم الذي حُرِم منه و يرفُلُ فيه الآخرونَ؛ فارحموني، واخفضوا أصواتكم النَّشوَى، وابتعدوا قليلاً بالثَّرثرة العذبة. أنا من لحمٍ و دمٍ، أوَدُّ أن أناديَ وأملأَ الدُّنيا ضجيجًا مثلكم أيُّها الأحرار. ها هي الأمنيَّاتُ تنتشلُني وتنبُذني في الخلاء أخيرًا سعيدًا واهنًا، فأقومُ وأقعُ، وأقومُ وأقعُ، حتى أثْبُتَ في الثَّالثة. و أمُرُّ على جسرٍ خشبيٍّ فوقَ جدول ماء، جسرٍ معلَّق بالحبال، وأنا أُؤنس نفسي بصوت أليف كنَوْحِ الحمامِ، والجسْرُ يتأرجحُ تحتي؛ أمُرُّ بخطوة حذرة بريئة، كخَطْو الحمام، فلمَّا جاوزْتُ، رميْتُ كلَّ الخوف عنْ ظهريَّ، لمَّا صارَ جسرُ الخوف في ظهري؛ فأجري، ثُمَّ أجري، ثمَّ أجري، حتى غابت، وهناك، أتسلَّقُ بلُوطةً عجوزًا، وأنزلُ، وأقطفُ الزَّنابقَ الرَّقيقَةَ، وأنثرها، وأجري مطاردًا فراشةً مرحَةً، ثم أستلقي ناشرًا أطرافي على العُشْب النَّديِّ وقد امتلأتْ عينايَ من سَعَة الوجود والدَّهشة وبهجة الألوان، أملكُ كلَّ شيءٍ، ولا أملكُ أيَّ شيء، تلكَ حياةٌ طيِّبةٌ!.. وبيني وبين كلِّ هذا أن أخرجَ من هنا، تعالي، أيتها اليدُ التي انتظرها احمليني من هنا، تعالي، تعالي.. تعالي...

تعالي (أخذ يردِّدها حتى نام.. نام كثيرًا.. وبعد مـــدَّة، أخـــذ يتقلَّبُ، ويَزْفِرُ، ثمَّ استيقظَ عبوسًا نَكِدَ المزاج).

لستُ دائمًا جَفلاً من خروجٍ، ولستُ دائمًـــا أغـــارُ مـــن المنطلقينَ بالخارجِ، الأمرُ أحيانًا فوق الخوفِ من الخروجِ، وأهمُّ من أمنياتي، فللسَّخَطِ نصيبُهُ أيضًا، نعم، السَّخَطُ العظيمُ! الحفرةُ التي مثلَ كهفٍ رطبٍ، تتسرَّبُ إليه ميـــاه الأرضِ والـــسُّيولِ، وأتلبَّطُ في وحلِها، إذاً بها فجأةً تجفُّ في ثوانٍ معدودةٍ في مشهد رهيبٍ، تتشرَّبُ الحرارةُ رطوبتَها، حتى تتفخَّرَ، وتتشقَّقَ أرضها وجدرانها؛ هنا حيث يمكنني دائمًا أن أسمَعَ شيئًا مثل وشـــيشِ البحرِ كالذي تسمعُهُ من قوقعة خرجتْ لتوِّها من ماءِ البحـــرِ، هنا يمضُغني الجفافُ، فأشعرُ لأديمها وجدرانها المتقشِّفة خشونةً في لحمي العاري، ويمرُّ الخَبَثُ من كلِّ شُقوقِها، أدخنةٌ بغيضةٌ، مَوْجاتٌ، بل غاراتٌ. مَن يشعلُ النَّارَ قريبًا من هنا؟

هذا بَخورُ الشَّياطينِ بين يَديها والمجمَرةُ، هي الـــسَّيدةُ ولا غير.

ها هي الأدخنةُ قدْ جاءتْ من الدُّنيا الواسعةِ تقتحِمُ عليَّ.. (يسعلُ بشدَّة).

آه.. آه.. آه.

جاءتْ على الذِّكْرِ!

تسلّلتْ إليّ مرّةً أخرى، ولكن كأنّها المرّةُ الأولى، ما اعتدتُ عليها حتى الآن، في كلّ مرّة كأنّها مفاجئةٌ صاعقةٌ لم أحسبْ حسابها، كأنّي أُغزَى من جارٍ، كأني أُطعَنُ من رفيقٍ.

آه.. آه.
أتعذّبُ، أتعذّبُ، أتعذّبُ.

وأعْجَبُ من غبائي؛ فأنا الذي أخلَدَ إلى الحفرة ورضيَ بها، وأنا الذي أخدعُ نفسي عندما أتخيّلُ أنّ هذه الغارات لن تتجدَّدَ بعد كلّ مرّةٍ تنتهي فيها. وأجدني مضعضعاً منبطحاً معتاداً على المكوث هنا. يقول عن كل مرّة: لعلها المرّةُ الأخيرةُ... ويبدو أنّه لا آخر لها أبدًا.

آه.. آه.. عذابٌ ما بعده عذابٌ.

أُشْوَى على نارٍ هادئةٍ، ها هي الأحداثُ المخيفةُ بدأتْ. يا وَيلي!.

(يجفُّ البلَلُ حوله، تتبقّى الرُّطوبةُ، ثم سرعان ما تتبخّرُ، يتقشّفُ الأديمُ، يتشقّقُ، يغبرُّ، يتصحّرُ، يسخنُ. تهبُّ ريحٌ سَمومٌ، لها عزيفٌ مخيفٌ. تنبعثُ الأدخنةُ، كريهةً، مقبضةً، خانقةً، شرّيرةً؛ تتّخذُ شكلَ أغلالٍ وتصوّقُ عنقَهُ ورُسْغيه وكاحلَيه، و هيئةَ وزغٍ، وهوامٍّ، وعناكبَ تزحفُ من السرَّةِ إلى حلْقه.

يفزعُ، تخرُجُ أنفاسُهُ متسارعةً متقطّعةً، يرتكنُ إلى الجدران، هاربًا من الكائنات الخرافيَّة والأغلال، تشهقُ الجدرانُ المتشقّقةُ، وتتمدَّدُ فيها شُقوقٌ وأشياءُ كالشُّعَيرات وكأنَّ فيها حياةً؛ إنَّها تنبضُ! كأنَّها أنفُ وَحْشٍ عملاق قد انكفأ عليه يتشمَّمُ فيه؛ تشفطُه إليها، يصرخُ، يحاولُ أن ينفكَّ عنها ولا يقدر، يبكي مرعوبًا، ولعابه يسيلُ من فيه، يزرقُّ وجهُهُ، يشعرُ بسخونة في ساقيه وظهره كأنَّه على رمالٍ ساخنة، يسعلُ، تهتزُّ رأسه يمنةً ويسرةً كفاقدِ الوعيِ، وصدرُه مثلُ طبلةٍ من نَقرةِ السُّعالِ الرَّهيبِ.

بعد دقائق طالت كأنَّها شهورٌ، تهربُ فلولُ الأدخنة، كجنِّيٍّ ينصرفُ، يسكنُ رأسُه المهتزُّ، ينخفض صوتُ سُعاله شيئًا فشيئًا، يبرُدُ جسمُه دقيقةً وراء أخرى، يستعيدُ لونَهُ الطَّبيعيَّ درجةً بعد درجة، يمسحُ زَبَدًا عن فمه في إعياء بالغٍ، و يمسحُ دمْعهُ في مسكنةٍ. كانَ أنفُ الوَحْشِ الحسَّاسُ المضطربُ قد سكنَ، سكنَتِ الجدرانُ القلقةُ؛ والكائناتُ الخرافيَّةُ لملمتْ بعضها بعضًا وانصرفتْ في هدوء، كما تنسحبُ كائناتُ الأحلامِ مع تباشيرِ اليقظة. ثم ظهرتْ فقاقيعُ رحيمةٌ في كلِّ جانب، وبدأت الأرضُ والجدرانُ تَرْشَحُ ماءً فاترًا، في قَطراتٍ كالدَّمعِ، ويَسمعُ للقَطراتِ المُنْسَالَةِ هَسهَسةً وهي تُطفئ جَنباتِ

الحفرة الرّمضاء، حتى ذهبَ رِيح فرنِ الفخّارِ عن الحافرة، وتلطّفَ المناخُ تارةً أخرى. انتهت الغارةُ الغادرةُ، أخيرًا، غير أنّه لم يشعرْ بالسّعادةِ التي يشعرُ بها النّاجُونَ).

لأني لم أنجُ.

أهذا الذي كنتُ أسمعهُ صوتُ صدري؟!

يا لبؤسي وهواني!

هذا الذي مررتُ به اليومَ لا يُحتمَلُ، الغارةُ ليست شيئًا يمرُّ من هنا و يرسلُ الدُّخانَ بالصُّدفة، عليَّ ألاَّ أخدعَ نفسي، هي تتعمَّدُ قتلي. واليوم قد فاضَ الكَيْلُ، وعليَّ أن أفرَّ من هنا حتى للموتِ نفسه، عليَّ أن أشقَّ طريقًا في التُّربةِ مثلما تفعلُ دودةٌ، حتى أخرجَ للصُّبحِ والهواءِ والأمنِ، للزَيْتونِ في فمِ الحمامةِ، عَلاَمَ أركنُ بين يدَيْ جلاَّدي منتظرًا أن يحنوَ عليَّ، علامَ؟!

تعالي انظري إليَّ.. أنا على وشكِ الموتِ هنا، أشعرُ أنّي قريبًا سأضعُ خدِّي على الأرضِ شاهقًا شهقتي الأخيرةَ، ليكون هذا الجُحْرُ قبري لترتاحي.

ما لي بها؟!.. إنَّها لا تسمعني.. بدلاً من أن أفكِّرَ في مواجهتها عليَّ أن أواجهَ نفسي (يبكي مجدَّدًا مشفقًا على حاله).. أنا الآن أهربُ من وجهِ الحقيقةِ التي أشعرُها، ولا أريدُ أن أراها. سأنطقُها.. سأكُفُّ عنِ الهروبِ.. كُفَّ عنِ الهروبِ.

قلْها.. قلِ الحقيقةَ.. أنت تعرفُ ماذا فعلتْ بك تلك الغارةُ الأخيرةُ، القشَّةُ التي قصمت الظَّهرَ، كان جلدُك - يا مسكين - يُدبغُ على مهلٍ، ولحمُكَ ينضجُ، حتى أتمَّتْ كلَّ شيءٍ منذ قليلٍ.

(يتردَّدُ. ينطقُ بخوفٍ وتلعثمٍ، وكأنَّ الكلماتِ وحدها هي التي ستحوِّلُ هواجسَه إلى حقيقةٍ).

بَخُورُ الشياطينِ.. بَخورُ الشياطينِ.. شَ. شَـوْ.. شَـوْ.. شوَّهني.. وشقَّ مني الشَّفةَ (يبكي ويصرخُ).

لا.. لا.. لا.

في هذه العتمة، حيث لا نور هنا ولا مرآة، و يدايَ مرهقتان لا أملكُ جهدًا لأَرفعَهما لوجهي، لا أرى الحقيقةَ ولا أتحسَّسها. وأنا لا أريدُ أن أعرفَ؛ قلبي لن يتحمَّلَ تلك الصَّدمةَ : مسيخٌ مخيفٌ، بشفة مشقوقة، وغُدَّة على الرَّقبة، يهربُ منه الأحرارُ الوِسَامُ المبتهجونَ لو رَأوهُ، ولا ذنب له إن يَدْرُوا، لا ذنب له.

ها هي، صوتها يصلني، أسمعُها الآن، هي ومن معها، يضحكْنَ بالخارجِ، بعد أن أدَّينَ طقسَهنَّ المشؤومَ، وأشعلنَ البَخورَ، وأخذْنَ ينفشنَ فيه، تلك الجماعةُ السريَّةُ وقدَّاسها المجنونُ. تضحَكُ، ولا على بالها شيء، وأنا هنا في حزني فمن يبالي بي؟!

وأنا هنا والأصواتُ والعتمةُ والخيالُ، أتصوَّرُ ما لا أراه: هناك، عند المذبحِ، فرَّت الحمائمُ التي كانت تعشِّشُ عند السَّقفِ، هربتْ من كُوَّات المعبدِ.. لم يبقَ سواهنَّ، والظِّلالُ والشُّموعُ المضاءةُ، ومجمرةُ البَخورِ، وضحكاهن الخافتةُ، والخدَر، وتحتهنَّ جماجمُ الهالكينَ في القَبْوِ الرَّهيبِ.

فتحتْ بابًا، وقفتْ تودِّعُ صاحباها، وارتدَّتْ. وهذا وقعُ خطواها على الأرضيَّة الخشبيَّة، تدندنُ بنعومة وحنان، صوها الآسرُ كأنَّما يفوح عطرًا و يشَعُّ ضوءاً، بدأ يدغدغُ قلبي، يضعُ المراهمَ على جروحي.

ويهدأ غضبي رغمًا عنِّي، وأنسى قليلاً. ويتبدَّلُ حالها في خيالي: تخلعُ بُرْنُسَهَا الأسودَ الذي كانت ترتديه عند المجمرة، وتتزيَّا بالحريرِ، وتبيضُّ أسنانها الصَّفراء، والشرُّ يغادر عينيها، وهذا الوجهُ المهيبُ شعَّتْ منه رقَّةٌ وطلاوةٌ.

أنتِ يا التي هناك، حيرتني معكِ. دعيني أحبُّكِ، أو دعيني أكرهكِ.

كلاَّ، هذه المرَّةُ لن أسامحَ، علِّميني إذن كيف أتوقَّفُ عن حبِّكِ.. هل تدرين؟ بَخوركِ الشيطاني شوَّهني، فأيّ شيء أعظمُ كيدًا من السِّحرِ يربطني إليكِ وأنا الذي أقسَمَ أن ينشبَ أظافرَه في وجهكِ لو يطالكِ؟

يا لهواني!

يا خجلي من نفسي!

يا للخيبة!

فرغم كلّ ما بي، إلاّ أنّي، إلاّ أنّي.... أُحبُّك.. للأسف! ولو أطالك، وضعتُ رأسي على صدرك، ونمتُ.

(يحتجُّ على نفسه) دعْكَ من هذه العاطفةِ المجنونةِ، اهتمّ بنفسكَ.

متى أرتاحُ من هذا؟ متى أنفذُ مثل دودة، وأخرجُ لوجهِ الأرضِ للأمنِ، للاستقلالِ، لحمامة تبشّرني، بزيتونِ السّلامِ، زيتونِ السّلام، السّلام.. السّلام.. السّلام.. السّلام.

(أخذ يردّدها حتى نام، نام كثيرًا، نومَ المُرهَقِ، يومًا أو عدّةَ أيّام، حتى ارتجَّ الجسدُ السّاكنُ فجأةً، واستيقظَ من تلك الغفوة، على أعلى جلَبَة، كشجارٍ، وكأبوابٍ تصفقُ، وكصوتِ اللّطماتِ، وكوقعِ أقدامِ الهَرْوَلة، ودمدمة ونداء، واستنفارٍ مهيب، وصراخُ المرأة على أعلى طبقة، خليطٌ أفزعَه؛ ثمّ كادت أن تندكَّ الحفرةُ، بمعاول تضربُ فوق رديم، وكأنّ المرأةَ قد وقعتْ في شرَك، كثيرون حاصروها، اجتمعوا عليها، ذعرَتْ، بكتْ، وانكمشَتْ تسمعُ وتطيعُ).

أهكذا أنتِ ضعيفةٌ؟!

أين البَخورُ والمعبدُ والطُّقوسُ السِّرِّيَّةُ والقُوَى؟!

إنها لن تسمعَكَ، فاهتمّ بنفسكَ.

(ينسى المرأةَ، ينسى العطفَ عليها والشَّماتةَ، ينشغلُ بنفسه، بالخوف، والأمنيات، والسَّخَط، وساعة الحقيقة المُرَّة، ووجه الأرضِ والصَّباحِ الذي لا زيتون فيه. يحاولُ أن يفلتَ مثلَ دودة، أن يشقَّ طريقًا للنَّعمة الهرَبُ، كلَّما خرَقَ ناحيةً التأمتْ ودفعتْهُ لمكانه، يبحثُ عن صدعٍ، هنا، هنا، كلاَّ، بل هنا، أبدًا لا فوْت هنا ولا هنا، يفشلُ، يقبع مذعورًا، منتظرًا تلك اليدَ التي كان يتخيَّلها، ينتظرها مرعوبًا مستسلمًا، تتسارعُ دقَّاتُ قلبه، وهو يسمعُ كدَويٍّ قصف بعيد يصلُه، والحفرةُ حوله تتزلزلُ. غلبَهُ الدُّوَارُ، ولم يعدْ يعرفُ أعلى من أسفلَ، يتمسَّكُ بالجدران بمَشقَّة وهو يغالبُ الإغماءةَ، يتكوَّرُ، يشفطُ بطنَه، لكنَّه يُدفعُ دفعًا؛ الجدرانُ التي كانت أحيانًا ما تشفطُه، تزفرُ الآن، تطردُه، ترفسُه. ينفلتُ، ينقلبُ، وخيوطٌ تتمزَّقُ حوله؛ ينفجرُ الماءُ، كأنَّه في مغطسٍ؛ ينفذُ من مثل غشاءٍ يتمزَّقُ، يلتفُّ، يُحشرجُ، يشرقُ؛ تلفظُهُ الحفرةُ، فاستهلَّ باكيًا شاكيًا، بصوت واهنٍ يمزِّقُ القلوبَ، هزيلاً محمولاً من كاحلين، مولودًا مشوَّهًا، لأمٍّ مدخِّنة، أدارتْ وجهها فزَعًا وخزيًا؛ وتمنَّتْ موتَهُ، و سرعان ما ماتَ كما تمنَّتْ).



خلفات الجند



وقفَ الوالدُ يُعْلِمُ حمدانَ ابْنَهُ ذاكَ الطفلْ:

أنّي ذاهبٌ في سَفرةٍ للبَنْدَرْ

فاحذرْ

مِن تلكَ العصافيرِ الجَوعانَةِ أنْ تهجُمَ حقْلَ الفُولْ.

قدْ ردَّ الطفلْ:

لكنْ يا أبتاه،

ينقصُنا بعضُ الفَزّاعاتِ [1] هُنا وهناكْ

وشراكٌ، وشِباكْ

قاطعه الأب :

أبدًا أبدا

ينقصُنا بعضُ اليقَظَةِ، بعضُ الجُهدْ .

الفزّاعات : ما يوضع في الحقول على شكل البشر من قشٍّ وخشب وملابس ؛ لإخافة الطيور .

والوالدُ يمشي من فورِه

والإبنُ تململَ مِن دَورِه

وتراجع للبيتِ عَجُولاً

.. نظرةُ حمدانَ إلى تلكَ الخَرْبةِ خلْفَ البيتِ مُريبَهْ..

جِدُّ مُريبهْ!

.. إلى أكوامٍ متكدّسةٍ مِن خِلْفاتِ الجُندْ:

الخُوْذات

والشارات

والبزّات

والأحذيةُ الجلدْ .

تُلقيها تلكَ الثُّكْنَةُ ، تَنْعَمُ بالسُّكْنى، خَلْفَ كثيبٍ واعِرْ؛

يمنحَها السُّترةَ والظلّ.

.. بعدَ مرورِ الأيامْ

عاد الرجلُ الغائبُ من حاجتِه،

ذهبَ على الفَورِ إلى الحقلْ

يسبِقُهُ الشوقُ إلى أرضه.

وتصلّبَ في وقفتهِ حَسيرًا!

وجدَ الحقلَ الأخضرَ ماتْ،

فِرقة جُندٍ من خَشبٍ، وانتصبت فوق يبابٍ،

في البزّات

والشارات

والخوذات،

لا فولَ هُناكَ ولا عصافير



إبهام أبيه



الصبيُّ (يزيد) يحلُّ ربطة شوالٍ من الخيش ، ويفرط ما به من برسيمٍ أمام الجّاموس فنكّستْ رؤوسها وبـدأتْ تأكـل ، وهو يشعر بفخرٍ لأن يسند له أعمال الرِّجال . وأبوه الـشابُّ الذي شدَّ ثوبه على حَقْوه يكسح الزِّبـْل في ناحيةٍ أخرى من الزَّريبة ، و يبتسم له فخوراً . وبعـد أن اجتهـدا في العنايـة بالزَّريبة وبهائمها ، جلسا وطعما على العشب ، علـى نغـمٍ متقطّعٍ من الخوار . وكان الأب يجيب عن أسئلة ابنه الوحيـد عن الغد بإجاباتٍ بسيطةٍ.

مثلما تلد الجاموسة عجلاً ، فيصيرا اثـنين ، وكـذا كـل البهائم ، سينمو كل شيءٍ هنا بإذن الله ، وسـتنمو أنـت ، وتصير رجلاً ، يأتي مع بنيه هنا في أملاك أوفر وأرضٍ أوسع ، اجتهدْ معي ، فكل ما يغلُّ ويربو هنا هو لَك ، ويبدو أنه لـك وحدك ؛ فأمُّك يبدو أن رحمها قد انغلق بعدك ، كأنما لاتريـد أن يرثني غيرك .

وفي آخر يومهما ، مضيا للبيت ، كما كان يحلو لهما المشي دائمًا ، منذ أيام عمل أبيه في الخدمة العسكرية كضابط صفٍّ ، حينما كان ينتظر عودته بالبزَّة العسكرية أمام البيت ، وقد كان

وقتها صغيرًا لم يذهب بعد لمساعدة والده في الزريبة ، هي ذاتها المشية ثابتة لم تتغير : تتشبَّث كفه الصغيرة بإصبع أبيه الكبرى ، ويظل يؤرجح كفَّه مع هذه الإبهام ، ويمضيان معًا ، يهزُّ دماغه للأماني الطفوليَّة في المدقِّ الترابيِّ ، الذي تهبُّ من جانبيه نسائم العصر ، محمَّلة بأريج زهر الحقول وروائح الزبْل المنبعثة من الزرائب والمذاود ، إلى أن يدخلا البيت معًا ، وظلت المشية على حالها بعد أن كُوفِئ الأب وكُرِّم و تقاعد شابًّا من الخدمة العسكرية وتفرَّغ للزريبة ، فترك الولد ألعابه البسيطة ولحق بأبيه في الزريبة كي يساعده ، والأيام تمضي بالمدنيِّ كما مضت بالعسكريِّ سعيدةً ، والولد الذي ينمو ككل شيءٍ أخضر حوله ، يود لو لايأتي عليه يومٌ و يخرج من طور الطفولة ، حتى لا يمنعه أبوه عن إبهامه ، وقد كانت تبدو له أكثر من مجرد إبهامٍ يقبض عليها ..

هذا ما شرد فيه من ذكريات الماضي ، انبعث في نفسه محمَّلًا بالروائح ووشيشٍ من أصوات طيور الحقل المختلَطة البعيدة ، انبعث في نفسه عندما كان عند فراش أبيه الذي يحتضر أمامه . ما كانا وحدهما هذه المرَّة مثلما كان الحال في طفولته ، فثمَّة ستة آخرون ، إخوةٌ له ، جاءوا بعده تباعًا بعد انقطاع الحمل عن أمِّه لتسع سنين.

وفي لحظات الاحتضار ، كانت عينا الرَّجل على طفله الأول ، الذي صار كهلاً ، رفيق الكفاح ، الذي عايش البداية البسيطة ونما معه يوماً بعد يومٍ ، حتى صار من ملاَّك الأراضي الزِّراعية المعروفين ، وصاحب أكبر مزرعة أبقارٍ ، وعددٍ من محالِّ الألبان .

في عيني المحتضر كلامٌ ما يحدِّث به ولده ، من الجائز أنه كان بعينيه يشكره ، ولعله يرجوه ، أو يحذِّره ، إنما كانت نظرةً بها كل شيءٍ ، ولاشيء على الإطلاق . وكلماتٌ تخرج من فم الرَّجل ثقيلةً ، تعترف للبكر بفضله وبجَلَده وعطائه .

ستحلُّ محلِّي في إدارة أملاكي ، وتصيرُ أباهم من بعدي .. أنا الوالد وأنت الولد ! ... وأنت الذي تعب معي حقًّا . لا أريد أن ينفرط العقد من بعدي ، فضمَّ إخوتك إليك ، وتحابُّوا.

وأخيرًا ، توقف الرَّجل عن التحديق بعينيه الغائرتين في وجه ولده ، وتوقَّف عن الكلام المتقطِّع المتحشرج النبرة . لقد ذهب الذي كافح منذ صغره وحتى يومه الأخير ، مات ، خرج من المدقِّ الترابيِّ فجأةً ذاك الرَّجل القديم ، الذي كان الطِّفل يتعلَّق بإبهامه ؛ فلما مات ، سقطتْ يمين البكر إلى جانبه .

بكوا على أبيهم جميعاً ، بكى البكرُ رفيق الكفاح الذي لم يتعلَّم حتى يتفرغ لمعاونة الأب، وبكى أيضًا الستة الآخرون

الذين شبُّوا في أيامٍ أفضل ، ودرسوا وتخرَّجوا من الجامعة ، فلم يعلفوا بهيمةً ، و لمْ يضربوا الأرض بفأسٍ ، هم فقط أطلقوا على الزريبة مزرعةً .

وبعد أن دفنوا الرَّجل ، وجفَّت الدموع ، وعادوا للبيت في صمتٍ حزينٍ ، أخذت الكلمات تهبُّ أمامه وتهبُّ معها الذكرياتُ لشقاءٍ طويل العمر .

(سينمو كل شيء هنا بإذن الله ، وستنمو أنت ، وتصير رجلاً ، يأتي مع بنيه هنا في أملاك أوفر وأرضٍ أوسع ، اجتهدْ معي ، فكلّ ما يغلُّ ويربو هنا هو لَكَ .

ستحلُّ محلي ، وتصير أباهم من بعدي .. أنا الوالد وأنت الولد ! .. وأنت الذي تعب معي حقًّا .. وأنت الذي تعب معي حقًّا وأنت الذي تعب معي حقًّا .. أنت .. أنت .. أنت.. أنت).

وانبسطت له الكلمات ، فتشبَّث بها ، ومضى معها بعيدًا جدًا ، حتى أجَّجتْ ناراً في صدره . كلماتٌ غير قاطعة ، أوضحها هو ما قيل في الصِّغر لما كان وحده ، كلماتٌ ليستْ صكًّا ، مبهمةٌ ، وهو تشبَّث بإبهام أبيه .

التركة حقٌّ لي وحدي ، ويكفيهم ما أخذوه في حياة أبيهم من شققٍ وسيارات ، وهذا عيادة ، وهذا مكتب محاماة ، وهذا بيعت عليه أرضٌ كي يدخل كلية الشرطة .

وفجّر قنبلته في وجه الجميع في مجلس الأسـرة وبحـضور أختهم ، عندما جمعهم وصارحهم بكل ثبات بأن لهم ما أخذوا خلال السنين الماضية ، بالإضافة لراتبٍ شهريٍّ من التركـة ؛ جبراً لخواطرهم ، أما هو فله تجارة الألبان والمزرعة الكبيرة نظير ما أنفقه من عمره وجهده مع الأب .

بكى أحدهم وتفرَّغ إخوته للتربيت على كتفه وهم في حالة يرثي لها من الذهول والعصبية ، وحده أخوهم الضابط كـان هادئًا متماسكًا على غير المتوقَّع ، كأنما قد عرض عليه يزيـد عرضًا سريًّا مغريًا يضمن به حيادًا ظـاهرًا وعونًـا باطنًـا ، والأخت جرت باكيةً على زوجها الجالس بالخارج ؛ تنخيـه للدفاع عن إرثها ، وإلا ما صار رجـلاً ، وأصـغر الإخـوة الطبيب المتديِّن حذّره من مغبَّة ما يطمع فيـه ؛ ونبَّهـه إلى أن التوريث الذي يحلم به ، ويريد أن يفرضه عليهم فرضًا ، وقـد لمّ حوله المنتفعين وصبيان المحلّات هو باطلٌ ، وحتى لو كـان أبوه يتمنَّى هذا الباطل ، إلّا أنه لم يجرؤ على إعلانه صـريحًا ؛ لإنه مرفوض شرعًا وقانونًا . أمَّا هو فعاند وهو باسطٌ كفَّيه في وجه الطبيب ووجوه بقية الإخوة .

: باطل ؟! ابسطوا أكفّكم النَّاعمة التي حملت الأقـلام ، أظننتم أنّي سأترك لكم حقّي الذي ألمح إليه والدي ؟! .. أبدًا

.. أبدًا ... لم يكن يهمكم من الأمر شيئًا إلّا أن يقال عندنا مزرعةٌ ، حسنًا ، هي زريبةٌ وليست مزرعةً .

كلُّ واحدٍ منكم في طفولته حملته بيديَّ ووضعته على ظهر بهيمة من أولكم وحتى الدكتور المهذّب. كنتم تجيئون من المدرسة إلى الزريبة تباعًا ترتعون وتلعبون، وأنا الذي يجرُّ البهائم، ويرعى ركّابها التلامذة، ثم عليَّ اليوم أن أقتسم معكم التركة ! .. على جثتي هذا .

وبعد قليلٍ ، نُودِي رجلٌ كبيرٌ من العائلة ليحلَّ الخلاف بين الإخوة ، الذين صاروا على حافّة الجنون، استعانوا به لعله يستطيع أن يمنع أخاهم عن أكل الميراث، وقد حاول الضابط ردَّه بلطف؛ فالخلاف أخويٌّ ولو اتّسع النقاش لفسدت الأجواء. وحمي الجدال مرةً أخرى، وهو مسترسلٌ بكلّ عنادٍ في سرد ما قال له أبوه طوال السنين الماضية ، منذ نزوله إلى العمل وحتى كلامه له في ساعة احتضاره أمامهم جميعًا . وإخوته يؤكدون له أن ما يحتج به ليس وهبةً ولا بيعاً ولا أي شيءٍ غير كلامٍ مبهمٍ ، لا تُقرَّر به حقوقٌ ، إنما كلامٌ عاطفيٌّ من أبٍ لابنه البكر .

وانفضَّت الجلسة على تأكيد الرَّجل الذي استدعوه بأن تُقسَّم التركة بشرع الله ، وأنه لايكون قيّمًا على هذا المُلْك

إلَّا برضا إخوته واختيارهم الحرِّ ، وألَّا يغرُّه لسمَّة الصبيان ولاعقي الأطباق حوله ، وقد قاموا جميعًا ، والشرُّ ينضح من عيونهم والوعيد .

طوال الليل ، كان يعيد ويزيد مع زوجته في الاحتجاج بحقّه، ثمرة المكابدة والعناء ، الذي انتووا أكله . وكانت تتوسَّل إليه أن يرضى بنصيبه ، وأن لا ينهي كفاحه نهايةً مزريةً ، وأن قدره بينهم أن يكون أخاً وأباً ، وهكذا الأب يعطي ويسامح ، ولا فائدة ؛ وبدا لها وهو يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، يشعل السِّيجارة من الأخرى، بدا لها مثل ثور حرون من ثيران الزَّريبة. ولما ألحَّت عليه وحذَّرته من الظُّلم ، حلف عليها بأن تسكت وإلاَّ طلَّقها ، فأطفأت النُّور ، وتظاهرتْ بالنوم وهي دامعة العينين . وشاهدتْه ينزل قرب الفجر بهدوء ومعه كيسٌ صغيرٌ . وبكت خلفه ؛ تشعر بأن ثمة مصيبةً قادمةً . كانت تودُّ لو أن لها قدرةً على منعه من النُّزول، غير أنها خافتْ من أن يرمي عليها يمين الطَّلاق في فورة الغضب .

مضى وقتٌ عليها،وهي تفرك كفَّيها قلقةً ، تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً - كما كان يفعل - وهي تزفر،كلَّما شرعتْ في الاتصال تخوَّفتْ ووضعت السَّماعة كما رفعتْها،صبرتْ حتى العاشرة صباحًا صبرًا مريرًا ، ثم اتَّصلتْ على جوَّاله و لم يردَّ ،

أعادت الاتصال عدة مرات ، ولم يردّ عليها مطلقـــا ، حـــتى اعتراها الفزع .

ولم تطق صبرًا ، فنزلت تدق على باب أخته بشعرٍ أشـــعث وعينين حمراوين وهي ضامّةٌ (روبها) بيدها وتـــرتعش مـــن الخوف ، وأخبرتها وهي منهارةٌ وبصوتٍ فيه يتمٌ ، أنه لا يـــردُّ على الجوال ، فاندفعتْ فيها أخته بكلّ عصبية تخبرها أنـــه – وبتسليط من يزيد – أُلقي القبض على كبير العائلة ليلًا وكذلك الأخ الطَّبيب،وقد عرفوا أن هذا تم بنفوذ أخيهم كنـــوعٍ مـــن الإرهاب والتأديب،وأنه لايهمها إن عاد يزيد أو لم يعـــد وإن حتى أكله القطار، وقد تفتَّحتِ الأبواب على صوت الأخـــت الصاخب، والتمُّوا ، بالأطفال،حول تلك المذعورة المرتعـــشة ، بما فيهم طفلتا الأخ الطبيب المتديِّن الذي أُلقي القـــبض عليـــه ظلمًا، وتظنَّان أن أباهما بات في نوبـــة ســـهر في المستـــشفى، تسألان عن عمِّهما يزيد برعب،كأن قلبيهما يشعران بكارثة ، وتحرَّكت عواطف الإخوة صريحةً بعد قليلٍ من ادِّعاء الجمـــود والعنجهية ، وانشغلوا بغيابه الغريب ، وعدم ردِّه على الجوَّال ، شيئًا فشيئًا حتى جزعوا،وانتقل إليهم من زوجته ومن الطفلتين عدوى الإحساس بأن ثمَّة مصيبةً وقعتْ عليه . بدؤوا يبحثـــون عنه في كلِّ مكانٍ ، والزَّوجة تبكي ، والأخت تبكي وتنـــادي عليه ذاهلةً : يا يزيد .. يايزيد ..

وبعد مدَّة قليلة وجدوه ، استجابةً لنداءٍ باطنيٍ عجيبٍ أخذ يناديهم إلى آخر البلدة ، ومضوا خلفه كالمسحورين ، كالمندوهين خلف ندَّاهة الجنِّ التي تسحب الناس للبراري ، وجدوه ، وما أعجب المثوى الذي ذهب إليه بإرادته ، وما أعجب الوضع قد شاهدوه فيه.

وقفوا هنالك يجأرون بالبكاء ، بينما كانت الشَّمس ترسل أشعتها على جوف مقبرة الأب .. كان هناك ، مَيْتًا ، بينه وبين أبيه بصَّامة حبْرٍ ، وورقة مبايعة ، وكفُّه الضخمة تقبض على إبهام أبيه .



خط العنقز



ضرب مرضٌ وبائيٌّ غريبٌ خمس بلدات صغيرة جدًّا، بيوتها مبنيَّةٌ من التراب، مصطفَّةٌ على خطٍّ واحدٍ بين سهبٍ وترعة، مثل بقعٍ رماديَّة، لا يلحظها المارُّون على الطريق السريع بسهولة، وهي أيضًا غير موضوعة على أيِّ خريطة، يسكن هذه البلدات عددٌ قليلٌ من السكَّان الفقراء الجاهيل المنعزلين، أصابهم الوباء جميعًا ببثورٍ مائيَّة بسيطة، سببتْ لهم حكَّةً، لكنها لم تزعجهم أو تُثِر مخاوفهم، وقد اعتادوا على أن لا زيارة للطبيب إلاَّ للضرورة القصوى.

أصابتهم البثور، وما مرَّ عليهم يومٌ من بعدها إلاَّ وتساقطوا كجرادٍ تعرَّض لرشٍّ كيميائيٍّ عنيفٍ كثيف،ماتوا جميعًا، وفي ساعةٍ واحدة أو أقلّ، هذه سقطتْ وقد كانت تعجن، فوقع رأسُها في وعاء العجين، وهذا مات وهو يسقي زرعه،وهذا مات وهو يذرِّي الحبَّ، فانطرح بجانب مذراته، وما بقي هناك إلاَّ عصافير دوريَّةٌ وقططٌ، وبهائم في الحظائر تنادي مُحتجةً على الذين تأخَّروا عن رمي العليق، وكلابٌ تنعى أصحابَها بصوتٍ ذاهلٍ قد استغلق عليها فهم ما حدث.

لم ينجُ منهم إلاّ بقّالٌ عجوزٌ يبيع بضائعَ متواضعةً، كالخبز والحلوى واللبِّ والجاز والصابون، اسمه الحاجُّ عارف، غَيْرَ أنه خرف من الصدمة، عندما مرَّ على الموتى حوله في بلدته، ثم في البلدات الأخرى المجاورة، فخرج هائمًا حافيًا حتى وصل إلى الطريق السريع، وأخذ يتلفّت حوله وهو يبدِّل على ساقيه من حرِّ الأسفلت في شمس الظهيرة، وأخذ يشهق كطفلٍ ضائعٍ يوشك أنْ ينفجر من البُكاء، بين السيَّارات التي تعجَّب رُكَّابها من شيخٍ مسيَّبٍ في الطريق السريع، منهم من تفاداه ومضى، ومنهم من سبَّه ، ومنهم من توقَّف يستوضح أمره، فإن سأل عن اسمه، قال: أنا المرحوم الحاج عارف، فقد ظنَّ أنه مات !

وقد كان وحده الذي نقل مشاهدَ لا تُنسَى للناس في القرى القريبة، وقد التقطه بعضهم من الخطّ السريع، بعد أن تجمهر عليه كثيرون: فوزية سقط وجهها في العجين، هكذا، وأخذ الدجاج ينقر في أقراص عجين الخبز الشمسيِّ من خلفها، وعبَّادي - يا ولداه - وقع في جرن القمح، والعصافير أخذتْ تلتقط الحبَّ من فوق جبهته ومن فمه، ثم إني رأيتُ شهديَّ الصيَّاد، والحوت الذي اصطاده ووضعه على الحجر، قد تسرَّب أمامي إلى الماء، كان قاعدًا في (هيش) الترعة ميتًا، ينظر للدوائر المائيَّة التي أحدثها الحوت الهارب الفرِح، أمَّا جمل الراوي،

فعجيبٌ أمره اليوم، جاع بسرعة لا تُعرَف عن الجمل، رأيته من فلق الباب يلوي رأسه ومشفره المضطرب على عنقه، حتى كاد أن يكسره، إلى أن استطاع أن يلتقط الذباذب الصوفيَّة الخضراء التي تزيِّن عنقه، وأخذ يمضغ فيها في قمَّة همه.

والولد رجب الهزيل، الذي يصبغ شعره بماء الأوكسجين، كان أمام مدرسة البنات، يجلس في السيَّارة (الجيب) الحربيَّة القديمة الخرِبة، المركونة منذ أكثرَ من ثلاثين سنة، والتي لم يبقَ فيها إلاَّ هيكلها الحديديُّ وإطاراتٌ فارغةٌ، والتي يدَّعي لأصدقائه الغرباء أنَّها سيارته وسيجددها عمَّا قريب، ودلَّل على ذلك بأنِ اشترى لها واقيًا من الشمس للزجاج الأماميِّ، خرج منها وفي يده الكلب الصغير المدلَّل، الذي سرقه من إحدى الاستراحات، وجلس على مقدِّمتها ينتظر خروج البنات من المدرسة، يكشط في البقعة الحمراء العتيقة على مقدمة السيَّارة ، لعلها دمُ شهيد، وقبل أنْ أصرخَ فيه وأنبِّهه للموت الذي يزحف، كان قد كُبكِب على وجهه أمام السيَّارة، والكلب الذي راحت أيَّامُ عزِّه، أخذ ينظر إليه من فوق المقدِّمة قليلاً بمشاعرَ مشتَّتة، ثم زحف وتزلَّج من فوقها، وانكبَّ على عظمةٍ صغيرةٍ ووضعها بين فكَّيه، ومضى لا يلوي على شيءٍ،

هذا شيءٌ مما رأيت، أمَّا عني أنا، فأظنُّ أنني متُّ على الكرسيِّ في الدكّان، بعد أن بعتُ للسيِّدة ستيتة لترَ جازٍ.

انتشر خبر الوباء بسرعة البرق، من فمٍ لفم،ومن بلدةٍ لأخرى مجاورةٍ، ولأنه ترك على الوجوه بثورًا مائيَّةً، كتلك التي يتركها العنقز (الجدري المائي)، ولأن الحاجة الإعلاميَّة لتسمية الأشياء هي أعجلُ من الحاجة العلميَّة المتروِّية، لهذا السبب وذلك، سُمِّي الوباء على عَجَلٍ بـــ (العنقز)، وسمِّيتِ المنطقة الموبوءة التي تتالت فيها البلدات الصغيرة بين سهبٍ وترعةٍ بـــ(خط العنقز)،وما هي إلاَّ ساعةٌ أخرى حتى انتشر الخبر في العالم أجمع عن خطِّ العنقز الغامض، وتحدَّثتْ به وكالات الأنباء، نقلاً عن مصدرٍ موثوق: المرحوم الحاج عارف، وصرَّح مسؤولو الصحَّة الدوليون بضرورة زيارة منطقة الوباء في أسرع وقت؛ لتقصِّي الحقائق، واتِّخاذ التدابير الوقائيَّة اللازمة، فيما نفى المحليُّون وجودَ خطِّ العنقز، وقالوا: إنَّ هذا الخطَّ أبعد وهمًا من الخطوط التي يقرؤها قرَّاء الكفِّ، وإن الخبر لا صرف له مثل عُملة أهل الكهف، تجاهل المترجمون الدوليُّون هذا السجع الذي لن يفهمه أحدٌ، ويحتاج إلى حاشيةٍ، ونقلوا عن المحليِّين صيغةً مقتصدةً مفادها أن خطَّ العنقز لا وجودَ له.

في الصبح، وبعد أن تمّ تطعيم كلّ الحضور، كان المخرج الكبير الذي جاء بطاقمٍ فنيٍّ عالٍ، يستمع للمرحوم الحاج عارف، يشرح له تفاصيلَ المشاهد الرهيبة للموت الجماعيِّ المفاجئ، ويُفصِّل له ممارسات الحياة اليوميَّة هنا، قد تمّ تكليف المخرج الفذّ بإعداد العدَّة لتصوير طبيعيٍّ حيويٍّ من البلدات المتتالية في الغد، يُعقَد بعده مؤتمرٌ ينفي وجود الوباء من واقع الزيارة، فاستعان بسكّان قرى قريبةٍ كمجاميع للتمثيل، عليهم أن يَملؤوا الفراغ الذي خلّفه الموتى.

ومع التجارب الأوليَّة، التي يتعرَّف فيها لـروح المكـان، وإمكانات الممثّلين غير المحترفين، تَخطّى حاجة التكليف، وتَمرَّد على الطرح القنوع، من أجل الفنِّ، وخمرتْ في ذهنـه فكـرةٌ جهنميَّةٌ: قرَّر أن يستعين بالموتى الذين جُمعوا ووُضعوا علـى أرض أحد الأحواش الواسعة؛ ليكونوا جزءًا من المشهد الـذي سيتمُّ تأديته في ظهيرة اليوم التالي، وسيُرى غدًا من سـيَّارات الزائرين، وعليه غسلوا وجه فوزيَّة من العجـين ومـسحوه، وربطوا رأسَها بمنديلٍ آخر مطرَّزٍ بدلاً من هذا المنديل الممزَّق، أمَّا رجب فتصلَّب معهم وثقل في أيديهم جدًّا، كأنه يفضِّل أن يتحطَّم في أيديهم كالخبز الجافِّ، ولا أن يعيد آخرَ ما خَتَمَ به حياته كشابٌّ مغازلٍ، فاحترموا اختيارَه، وجيء برجبٍ حـيٌّ

نَحيف أيضًا، وصُبِغ شعره بماء الأوكسجين، وأُجلِس على مقدِّمة السيَّارة (الجيب)، وجيء ببنات مدارس، أغلبهنَّ يمضين في حالهنَّ، وبعضهنَّ بأعينٍ زائغة، كما حدَّد المرحوم الحاجُّ عارف، فيما نُصبتْ جثّة بنتٍ حقيقيَّة ، اسمها ولاء ، عانتْ عذابًا مريرًا من الفشل الكلويّ ، و فشلتْ في الحصول على علاجٍ على نفقة الدولة ، نُصبتْ في فناء المدرسة في خلفيَّة المشهد ، تتدلَّى من جانبها (قسطرة البول) وهي ترفع العَلَم !

ثمَّ مشهدٌ لمشاجرة بين أسرتين؛ بسبب لعب الأطفال، وثمَّة امرأةٌ طلَّتْ من شبَّاك؛ لتُتابعَ المشاجرة، وقد رمتْ بجسمها على الشبَّاك رميًا، وقد استشهدهُا الجموح الصاخبة ، أم أحمد الذي أسال الدم من أنف غريمه من أسفل منها، استشهدهُا فيمن بدأ بالخطأ، وبدت الشاهدة غير متحمِّسة لشهادة زور،كالتي يضطرُّ إليها الأحياء خوفًا، فقد كانت ميتةً لا تخاف، وهناك أطفالٌ يصيحون من تحت نخلة فرحين بما تَسَاقَطَ إليهم من رطبٍ، ورجلٌ أعلى النخلة كأنه يقطع العَذْق، ويلعبُ الهواءُ بثوبه، وإنه لميِّتٌ، وأطفال يسبحون في الترعة،قريبًا من رجلٍ ميِّت يبدو كأنه يدير طُنبور المياه، وهكذا مشاهد كثيرةٌ عجيبةٌ يشارك فيها الأموات بجوار إخوانهم.

لم يكن ثَمَّة اختلافٌ كبيرٌ بين وجوه الأحياء ووجوه الموتى، فكلُّهم هَزْلَى وشاحبون، غير أنَّ الموتى كانوا أكثرَ اعتمادًا على أنفسهم، وأكثر ثقةً بأنفسهم أمام المخرج وطاقم العمل، فحَثَّ المخرج الأحياء على أن يكونوا غدًا في جدِّيَّة إخوانهم الموتى نفسها، فإن الموتى غير مرتبكين، ولا يَخافون من زوَّار الغد، وغير متواطئين في أداء جماعيٍّ، ورغم هذا الأداء الفرديِّ الذي يغلب عليهم، إلاَّ أنَّه لا أحدَ منهم يتَّصف بالأنانيَّة ويرغب في سرقة الأضواء، والأهمُّ من ذلك كلِّه: هو ذلك التجاهل البارع في عيون الموتى، عيون الموتى محنكةٌ لا تنظر للكاميرا، فهل من حيٍّ يمكنه أن يتجاهلَ الكاميرا تمامًا؟

ودارت الكاميرا مرَّةً أخرى، وتحسَّن الأداء للأحياء شيئًا ما، ثمَّ دارتْ مرةً أخرى فتحسَّن أكثر، وهذه الاستقلاليَّة عند الموتى فتنت المخرج إلى حدٍّ بعيد، وأهاجتْ خياله كثيرًا، وفجَّرتْ رغبته في إتقان هذا العمل الغريب حتى بصرف النظر عن الضغط الرسميِّ (الفنُّ من أجل الفنِّ)، وبالفعل،تعظَّم الأداء، وازدادت الصورة ثراءً وتفصيلاً وواقعيةً، ولم ينسَ المخرج حتى روائح الطبخ المنبعثة من البيوت، وتصريف مياه الغسيل، والسجائر التي يشربها (القصَّر) خلسةً في الزوايا الجانبيَّة، وميعادًا حميمًا عند أعواد قصب السكَّر بين ميت وميتة، قد اعترض المرحوم الحاجُّ عارف عليه، ولكن المخرجَ لا يستطيع أن يتغلَّب على عاداته الفنيَّة.

وفي التمرين النهائيّ (البروفة) - وبكلّ اتّقاد - بان أنّ المخرج قد شكّل بالفعل جماعةً حماسيّةً وحيويّةً من الأحياء والموتى لا نظيرَ لَهَا؛ للدفاع عن سُمعة البلد، أو لتأكيد براعته، حتى إنّه من فرط ثقته تمنّى أن تمرّ سياراتُ المسؤولين الدوليين والمحليين ببطء شديد حينما تمرُّ؛ فخسارةٌ كبيرةٌ أن يُشاهَد هذا العمل الذي يحمل أدقَّ التفاصيل، والذي يصعُب التفريق فيه بين الأحياء والأموات،من خلف زجاج سيَّاراتٍ مسرعة أثارت الغبار.

وقد اندمج الأحياء المجاميع في العرض تمامًا،واختلطوا بالموتى الذين كانوا على أفضل درجة مُمكنة من الإقناع؛ بسبب خليطٍ رائعٍ من قوّة الخيال، وصنعة (الماكياج)، والدعم الفنّيّ الذي منح الموتى أدوات للحركة إن تطلّب الأمر ذلك، كهذا الذي يَبدو وكأنّه يُدير الطنبورَ، أو هذا الذي يَبدو من بعيد ماضيًا خلف الثور الذي يَحرث أرضَه، وذَهب عن الأحياء المجاميعِ هذا الخطُّ الحيويُّ الفاصل بينهم وبين زملائهم الموتى، حتى إنّ بعضهم قد قلق على نفسه، وظنّ أنّه ربّما من الأموات الذين سيُجمَعون بعد هذا العرض في الحوش، مثلما تُجمع عرائس الخشب بعد انتهاء العرض، وتُركَن في عالم السكون والعتمة،ولَمَّا نادى المخرج في مكبّر الصوت،ونقلت السمّاعات نداءه في كلّ البلدات الخمس، نادى راضيًا شاكرًا بإيقاف العمل اليوم، ودعاهم لعشاء الكباب الذي لم يذوقوه من قبل،

جرُّوا باتجاه الموائد العامرة، فرحين بالطعام الشهيِّ، وفرحين؛ لأن جريَهم إلى الطعام كان حدًّا فاصلاً بينهم وبين الموتى، الذين لم يبرحوا مواقع التصوير في البلدات الخمس، لقد أكَّد لهم جريُهم للطعام أنَّهم أحياءٌ يُرزَقون.

المرحوم الحاجُّ عارف وحدَه قد تردَّد وقتًا ما، بين أن يذهب للكباب أو يمكث بين الموتى، حتى قام له اثنان، ومضى بينهما إلى الطعام، ولَمَّا أكل الكباب لأوَّل مرَّة بعد ثمانين عاشها في الفول والعدس والكرَّاث، أيقن أنه حيٌّ وشُفي من وسواسه، وتوقَّف أخيرًا عن سؤاله المتكرر للمخرج: متى - إن شاء الله - سيتمُّ غُسْلي؟

أكَل المخرج بينهم قليلاً، ثم وضع منشفته على منكبيه، ومضى يدندن وخلفه مساعده الشابُّ، وتوجَّه لمضخة ماء (طلمبة) عندها امرأةٌ من المجاميع، فضخَّتْ له المياهَ؛ ليغسلَ يديه وفمه، فقال لمساعده متباهيًا بصنعته في الناس: أحَيَّةٌ هذه أم ميتةٌ؟

صدقت يا عبقري، لقد جعلت التمييزَ صعبًا، فعشنا ورأينا ما لم نره من قبل، الموتى يُمارسون حياةً طبيعيَّةً كانت حَكرًا على الأحياء.

قهقه المخرج، ثم قال: يا منافق، ألم يصوِّتوا في الانتخابات من قبل؟!

وقفز إلى الأرجوحة الشبكيَّة التي نُصبتْ له بين شجرتين، وقد أخذ كلب رجب في حضنه، وجد فيه الكلبُ عزاءً وترضيةً عن أيّام الجوع والحرمان التي عاناها مع رجب، ووعدًا بحياة تصل ما انقطع، وأخذ يَمسح وجهه فيه، كطفلٍ ينعم في حضن أبيه العائد بعد غيبة، وشرد المخرج في حياة الأضواء التي عاشَها طيلة عمره، حتى تبدَّى على عينيه لمعةٌ وسَنَى من الأُنسِ والتذكُّر والرضا، لمعةٌ تختزل عمرًا من التصفيق والجوائز والدروع والفلاشات،حتى ثبتتْ هذه اللمعة بصورةٍ غريبةٍ على عينيه طيلة الليل.

مع ضوء الفجر اللطيف وضبابه وبرده، وفيما كان الكلب نائمًا في بلهنيَّة في حضن آخر أصحابه، وفيما لا زال رجلٌ على جذع الشجرة يقطع العَذْقَ، ولا أطفالَ من تحت النخلة يَجمعون، وآخر يدير الطنبور بلا كللٍ،ولا صِبْيَةَ حوله يسبحون، وفوزية على عجين الخبز منكبَّةٌ، والتلميذة الميِّتة ترفع العَلَم، وامرأةٌ تطلُّ من الشبَّاك على مشاجرة قد انفضَّتْ منذ عشر ساعات، أضاء مساعدُ المخرج المصباحَ القويَّ وصوَّبه ناحية المخرج؛ ليوقظه، وصعد إلى الكاميرا العالية وأدارها تجاهه مُداعبًا، وساقها إليه بين الشجرتين وهو يراه مفتوحَ العينين لا يَحفل بوجوده وندائه الخفوت، وأخذ يضبط عدسةَ الكاميرا؛

حتى يقرِّب صورة المخرج، حتى قرَّبها كثيرًا إلى عينيه وقد باتت فيهما اللمعة منذ الليل، بدت العينُ كبيرةً جدًّا وشعيراتُها الدموية نافرةً، ولونها العسليُّ زاعقًا، ونملةٌ تَمشي عليها بغير أن ترمش، كانت عينه محنكةً لا تنظر للكاميرا.



لست نحسا



على أرضيّة غرفته البسيطة، مدَّ ساقيه، لا تعرفُ إنْ كـــانَ مُغتمًّا، أمْ أنّ الغمَّ قد رسمَ على ملامحِه علاماتٍ ثابتة.

خلعَ ساقَهُ الخشبيةَ المدبّبة، وأخذَ يمرِّرُ يدَهُ على الـــسليمة، وكأنّه خائفٌ مِن أن تلحق بأختِها يوماً ما.

قفّاص: يَصنع الأقفاصَ مِن العيدان، والزّنابيلَ من سَـــعَفِ النّخلِ. مِن نافذةِ الغُرفةِ يَسمعُ ضَجيجَ ابنِهِ الوحيدِ يلعبُ الكُرةَ مع الصّبيان.

هذا الولَدُ الذي ماتتْ أمُّه في وِلادته، فسمَّاهُ أبوه (غُراباً !)؛ لأنّ مجيئَهُ للدُّنيا حملَ له أتعسَ خبرٍ بوفاةِ شريكةِ حياتِـــه ذاتِ الوجهِ المبتسمِ دائمًا؛ رحلتْ في آلامِ المخاضِ، وتركـــتْ لــه طفلَهما الوحيدَ الذي لم يحتفلْ به أحدٌ، وتركوه في قماط [١]، وانشغلوا بالفقيدةِ حتّى تذكّروه في آخر الليل يومَها.

القِماطُ : خرقةٌ عريضة يُلَفُّ بها المولود.

هذا الولدُ الذي صادفَ يومُ ختانه حادثةَ قطـــار البـــضاعة الذي أكلَ ساق الأبِ عندما كان يمرُّ من تحته.

تثقلُ رأسُ الأب قليلاً وتميلُ إلى كتفـــه، يـــسمعُ صـــوتَ مشاجرة على هدف، يشكِّكُ غرابٌ في نزاهة الحكَمِ وفي صحة الهدف، يثيرُ غبرة، يحتجُّ، يهدِّد، واللَّغَطُ زاد.

يَخرج أبوه، ويهزأ به أمامَ الصِّبيان، فيضحكون. ويـــأمرهُ بالدُّخول للمُذاكرة، ويصفه بـــ (غُراب الـــبين!)، ويُمـــسكُ بتلابيب ثوبه... يندفعُ الولدُ للوراء محتجًّا متخلصًا من قبـــضة أبيه، ويُشيْحُ بيده، وكادَ الأب أن يقع.

- سأتركُ لك البلدَ كلَّها حتى تستريح.

يرتبك الرجل:

- والدراسة؟

- لا أريد (العلام).

وما إنْ نطقَها وقدْ مدَّها مدًّا، حتّى خرجتْ كلُّ الكتبِ من بيوت البلد متدافعةً، وطارت في السماء.

ففزِعَ الرجُل: اهدأْ، اهدأْ، ولا تغضبْ يا غُـــراب، مـــاذا ستفعَلُ بنا؟!

والولدُ يسير تلقاءَ الجسرِ بخطواتٍ جَسورةٍ هادرةٍ يُعلن تمرُّدَه النهائيَّ، والأبُ يستأنف:

- حسناً، عُد، اعملْ في الحقل ؟

- لا أريدُ الغيطان !

فانخلعتْ أعوادُ الأرز مِن الحُقول المغمــورةِ بميــاه الــرَّيِّ، وطارتْ في الهواء.

- لا ترحلْ.. إذًا ساعِدني أنا ؟

- ولا العيدان.. ولا العِيدان.

وكذلك، كالسهامِ انطلقَتِ الأعوادُ الَّتي يصنعُ منها الأبُ أقفاصَهُ، انطلقت مِن نافذة البيتِ حتى توارتْ في الفضاء.

- كُن صيّادًا في قاربِ عمِّك ؟

- لا أريد الحيتان !

خرجتْ كلُّ حيتان التُّرعَة أيضاً تتلوى منقذفة في الهــواء ، وانضمَّتْ للأشياء المندَفعةِ الَّتي انطلقــتْ بكلمَــاتِ الطفــلِ الشئيمة.

وقدْ شخصَ أهلُ البلدة كلُّهم مذعورينَ إلى السماء وهــي تحملُ أشياءَهُم الثمينةَ فلا تعود.

والرجلُ يكاد أن يختنقَ من الخوف والغمِّ والشعورِ بالنحس، وعيون الجمهرةِ حولَهُ تأمرُهُ أن يتصرَّف ويعيدَ لهم الخيراتِ الَّتي أذهبها صوتُ ولَدِه المنحوس.

فجأة، يشعرُ الرجلُ بأنّ الكتبَ ومحاصيل الأرز والأعـوادَ والحيتانَ كلّها صارت شيئًا واحدًا غامضاً متكوِّراً يتّجهُ ناحيـةَ الأرض، تحديداً يقتحم جلستَهُ في الغُرفة ؛ لقَد اصطدمَت الكُرةُ بقفا الرجُل، فاستيقظَ من غفوته جالساً.

.. يَدخل الابنُ مبتسماً في حياءٍ ليأتيَ بالكُرة، وقد كـشفَ أسنانَهُ الأماميةَ الكبيرةَ، وقال:

– زعلان؟

– أنا؟!.. "يخربْ بيت من يزعلك"!، العَبْ، العبْ، العبْ.. والهدفُ غيرُ صحيح.

يقتربُ الولدُ من أبيه، ويجلس بجانبه، متأملاً علامات الغـمِّ الّتي لا تذهبُ أبداً، ويشعرُ الأبُ أنّ الوَلدَ يتفحَّصُ سيمَاءَ الألمِ في تجاعيده، فينكّسُ رأسَه.

– الصِّبيان يَضحكونَ مِن اسمي يا أبي.. أنا لسْتُ نَحْسًا.

وتبللَتْ عينَا الطّفل بالدّمع.

يمسحُ الوالدُ دموعَهُ بيده، ويتحسَّسُ وجهَهُ البريءَ، ويقول ببطء وبتردد:

– أنتَ.. لستَ...(وتوقّف كأنه لا يستطيعُ أنْ ينطقها)

– قُلها.. لستُ نحسًا يا أبي !

وفي عَيْني الأبِ استفسارٌ، وفي عيني الابنِ إلحاحٌ، يـضطرُّ الوالدَ إلى أنْ يستفسرَ، فقال بحُرقة: - وأمُّكَ ؟

- انتهى عمرُها يومها.

ينظرُ لساقهِ الخشبيَّة بجانبه، ثم لابنه، فيستتلي الولدُ:

- أنتَ الذي أخطأتَ إذْ مررتَ مِن بينِ عَجـلاتِ قطـارِ البضاعة ولم تصعدْ على الجسرِ.

.. يبلعُ الرجُلُ ريقَهُ ويُذعِن، وقد دمعتْ عيناهُ أيضًا، ويقول بصوت متحشرج:

- أنت لست... نحساً

وابتسمَ الولَدُ وقد تلوَّن وجهُهُ بالسعادةِ واللَّهفةِ:

واسمِيْ مِنَ اليوم (عبدِالله).

- أنتَ عبدالله.

وربَتَ القفَّاصُ على كتفِ ولده، ولبسَ سـاقهُ الخـشبيةَ المدببة، وخرج هو وابْنُهُ، يزفّان أولاً لصبيانِ الملعبِ خبرَ تغـيير الاسم، فصاحَ الأطفالُ، وتجمَّعُوا خلفَ الرجلِ وابنهِ مباركينَ.

والرجلُ يُنشدُ والجوقةُ خلفَهُ تردِّدُ وهـم يجوبـونَ جميعًـا طُرُقاتِ البلدةِ الريفيةَ:

- يا عبادَ الله، ابنيْ، مِن اليومِ، اسمُهُ (عبدالله).. يا عبادَ الله، ابني، مِن اليوم، اسمُهُ (عبدالله).

واهمرَت الحَلوَى والعُملاتُ المعدنيَّةُ على الأطفـال مِـن النوافذِ التي أُشرِعَتْ، وعلى رأسِ رجُلٍ لمْ يبتسِمْ منذُ عَقدٍ مِـنَ الزَّمَن.

زئبق أحمر

يتقدَّم إليه على الطَّريق المعفَّرة، نِطاسيٌّ[١] فوق بغلة نشيطة تَملج[٢]، يعتمر عمامةً كبيرة مهيبة، ويرتدي جبَّة، وأمامه سِفْر ضخم من ورق أصفر، وبين يديه غلام من الزَّنج يحمل قنديلاً يضيء له المسير، توقَّف عنده وترجَّل، وسكت قليلاً، ثم أشار إليه بسبَّابته وهو يهزُّها، بهدوء تكلَّم، وبابتسامة العارفين[٣]:

يَا طَالِبًا بوريطش الحُكَمَاءِ ع مَنْطِقًا حَقًّا بِغَيْرِ خَفَاءِ

هُوَ زِيبَقُ الشَّرْقِ الَّذِي هَتَفُوا بِهِ فِي كُتْبِهِمْ مِنْ جُمْلَةِ الأَشْيَاءِ

سَمَّوْهُ زَهْرًا فِي خَفِيِّ رُمُوزِهِمْ وَالحُرْ شُقْلا أَغْمَضَ الأَسْمَاءِ

زيبق الشَّرق؟! (يردُّ على النِّطاسيِّ الذي أتاه بعين يملؤها الوله والشَّوق)، زدني، زدني.

فتح النِّطاسيُّ السِّفْر المغلَّف بجلد الغزال، وأخذ يقلِّب في صفحاته بعين خبير منهمك، وهو يقرأ سرًّا، ويزوم بأصوات عجماء من أنفه، بأصابع قد تختَّمت بخواتم ضخمة من الفيروز

---

[١] النطاسي: العالم الماهر. [٢] تملج: تسير سيرًا حسنًا في سرعة.

[٣]من كتاب "فردوس الحكمة في علم الكيمياء"

واليَشْب، يلعب في لحيته البيضاء المرسلة على الـــصَّفحات، حتى توقَّف عند صفحة ما، وأخذ يدقُّ عليها بظهـــر كفّـــه، وأشار له ليقوم؛ ليريه سرًّا من أسرار الحكمة (هو زيبق الشرق الذي هتفوا به في كتبهم). هيَّا قُمْ، هذا وعدك، فهذا الــذي كان سرَّ عادٍ الأولى.

هَمَّ أن يقوم له متحرِّقًا، استند بكفَّيه على التراب، غير أنه تبلبل بريح أثارتْ غبرًا، وهزَّت مـــصابيح الإضـــاءة، ضـــيَّق حدقتيه، استفاق من نداء النِّطاسيّ، النِّطاسيُّ غمَّته زوبعة، أخذ يضمحلُّ فيها حتى اختفى، وقد ماعتْ كلماته شيئًا فشيئًا، حتى ذابت في عزيف الرِّيح.

ما عاد أحد أمامه غير واقعه المرير، وخَيبتـــه، والمـــارُّون في ساحة (الحراج)[٤]، فيلتفتُ لها ببطء وهو يتمنَّى لو كانـــت حلمًا ووهمًا، غير أنه وجدها بجانبه:

آلة (سنجر) عتيقة للخياطة، وجرو أسود فضوليٌّ يتفحَّصها ويتشمَّمها، زجر الكلب حتى ابتعد، أطرق للأرض مخزيًّا مـــن حاله وأوهامه.

---

[٤] الحراج: السُّوق الشعبي عند أهل الجزيرة العربية

كم من سنين مرَّت عليَّ هنا زائرًا كريمًا؟ منذ أن جئت أوَّل مرَّة في طفولتي، أهكذا النِّهاية؟ أهكذا النِّهاية يا حراج (بن قاسم)؟! أفترشُ الأرض ومعي آلة خياطة، أودُّ بيعها بأيِّ وسيلة حتى أستردَّ مالي؟!

أخذ يتذكَّر الأيَّام البعيدة له هنا، للصَّبيِّ الذي كان يأتي مع أبيه، ثم ينسلُّ منه بلطف، ويذهب إلى بُسُط النُّحاسيَّات والأباريق والقماقم، مشدودًا إليها، ويحكُّ في المعروضات التي تثير انتباهه، لم يخرج له المارد من القمقم أبدًا؛ ليكافئه على أنْ فكَّ أسره الذي طال من عهد النَّبيِّ سليمان - عليه السَّلام - وقد كان يحلم بالتُّحَف، والطَّيِّبات، والطَّعام الشَّهيِّ، والثِّياب النَّاعمة، وأسفار بعيدة على بساط الرِّيح.

اليوم ها هنا يجلس ذاك الطفل الخياليُّ رجلاً يرتدي ثوبًا سَمَلاً، و(شماغًا) وسخًا، يداري به نصف وجهه، وقد غيَّر ملامحه بشيء من الحِيلة، وارتدى نظَّارة سوداء كبيرة، بدَّل هيئته قدر المستطاع؛ حتى لا يتعرَّف عليه أحد من روَّاد (الحراج)، وقد جاء بائعًا هذه المرَّة.

منذ ثلاثة أيام فقط كان هنا، في حال غير الحال، وفي ثوب غير الثَّوب، يحدوه الأمل، في تلك النَّاحية هناك، وقف ينافس المساومين ويزيد عليهم، حتى اقتنص كنزه بكلِّ ما يملك من مدَّخرات.

(عليَّ بخمسةَ عشرَ ألفًا، ومالي معي)؛ قالها بعـــد أن مـــرَّر الجوَّال من أمام إبرة آلة الخياطة، فانقطع الإرسال، وكـــاد أن يتوقَّف قلبه من الفرحة العارمة.

(حلالك) ؛ قالها البائع، فقدَّم له صاحبنا المال، ثم حمل آلته ومضى وهو لا ينظر خلفه، وقد كان خلفه عيون تحقد عليـــه، على ذلك الذي اختطف الحلم دون الآخرين.

والجنيُّ حتمًا يأتيكَ مضطرب المِشفر، يتوسَّل إليك؛ كـــي يأخذ قطرة من إكسير الحياة الذي في المِخيَط: الزِّئبق الأحمر! في حجرتكَ المظلمة عليكَ أن تنتظره، يأتيكَ في آية من الـــدُّخَان والهيبة والأطيط، وأنفاسه تسبقه، أنفاسه التي تـــسبقه ســـتهزُّ الفانوس الأحمر المُضاء في أوَّل الرواق، سيرتجف له جـــسدك، وتعاني قليلاً من وطأة حضوره الشعشاع الرَّهيب، ثم يظهر بدن عظيم سمين، وقد ارجحنَّ[٥] في مشيه إليك كمـــا يـــرجحنُّ الدُّبُّ في سيره منتصبًا على اثنتين، إن جاءك فلا تخافه، اثبـــتْ في مكانك بلا وجل، وأعطه بقَدَر، وإن استزادك فلا تـــزده؛ حتى يظلَّ رهينًا لكَ، عبدًا منقبًا يفتِّح الكنوز التي قامت عليهـــا الجنُّ رَصَدًا، ويلقيها صاغرًا بين قدميك، وغوَّاصًا يريك عجبًا

---

[٥] ارجحنَّ: ثقل ومال واهتز.

من قِيعَة الأبحُر، وجوَّابًا يُطرِفك بخبايا الجُزُر النائية، ويطير إلى القرون مما كان قبلك، فصدِّق أو لا تصدِّق، في الماضي سيلاحقُ – عفوًا – لاحقَ قافلة للسُّلطان يغمرها البدر في ليل الصَّحراء، خطف من فِضَّة الجواري المكنوزة خلف الصُّوف التَّهاويل[٦]، ثمَّ أتاك في زمن الحديد.

أضاء الفانوس الأحمر الصغير في أول الرواق، وأطفأ نور الحجرة وانتظر، مرَّ به الوقت ولم يتحلَّ له شيء، أخذ يتمتم طويلاً حتى كاد أن يهذي، والفانوس ساكن هناك، لم يهتزَّ من أنفاس الجنيِّ القادم، ولم يشعر على رأسه بوطأة الحضور إلاَّ وهمًا قليلاً، مع كلِّ قطرة ماء تنزل في الحوض تكسر السُّكون، كان قلبه يرجف؛ أملاً في الحضور.

هذا هو! أبدًا أبدًا، تلك قطرة ماء، ومع جويل الرِّيح بالأوراق في الشُّرفة، ومن صرير الباب المفتوح، أهو؟! كلاَّ كلاَّ، لا تتعجَّل، ودعا الجن بالعزائم الشِّداد، وقد انتفخ ودجاه، واحمرَّ وجهه، وانتظر، وندب الروحانيَّ يتلوان سويًّا، وانتظر، لم تتشمَّم الجنُّ بخراطيمها رائحة الزِّئبق حتى مطلع الفجر، ولم تهزَّ الفانوس بأنفاسها أبدًا!

---

[٦] التهاويل: ما على الهوادج من الصُّوف الملوَّن.

حاول مرَّة وأخرى، ثم حاول في اللَّيلة الثانية، حتى يــئس، وأشعل النُّور، وحطَّم الفانوس، ولم ينم، كانت تلك كــذلك ليلة سوداء.

في اليوم التالي بوقت العصر، أخذ بَلْوَاهُ السَّوداء في السَّيَّارة، وجاء اليوم يبيعها في نفس (الحراج) الذي تخطَّفها منه، يجلــس خزيانَ حزينًا على نفسه، يرى الموات في كلّ شيء، والحــزن والغبار في وجه السَّماء، ووجوهُ البشر كالحة، وأصواتهم يأس، وسيرهم كَسَل، وفي أنفه رائحة كرائحة الخبز المتخمِّــر، وفي عينيه دمعة متحجِّرة.

ويلي! خُدعت فيها شرَّ خدعة، وها قد جئت اليوم، أبيــع على خلق اللهَ بيع الغشِّ، أنتظرُ غفلاً، فيحمل عــني أحلامــي السَّاذجة، ويردُّ لي مالي، لكن، أنا لا أصدِّق أني عشت وهمًــا وأُكذوبة غبيَّة، كثير من النَّاس اغتنوا فجأة، هو الزِّئبــق، هــو الزِّئبق، فما بالها لم تضبط معي إذًا؟! مرَّت السَّاعات عليــه في جلسته متململاً، من العصر حتى الغروب، ولم يسأله أحد أبدًا عنها، ولم يساومه في ثمنها رجلٌ، لقد بارت الــسلعة فجــأة، مثلما راجت فجأة!

أفقتم جميعًا الآن؟!

أما كان منكم رجل يزاحمني في شرائها؟!

ساعات صعبة، كتلك التي مرَّت عليه في الشَّقَّة منتظرًا جنيًّا شبِقًا للزئبق النَّفيس، يختلط عليه الشعور بالصَّدمة من نفــسه،

والجزع على المال الذي ضاع، والرغبة في أن يظــلّ متلــذّذًا بالحلم، مع شعور أقل حدَّةً بعذاب الضمير؛ فقد جاء لــيغشّ، ولأول مرَّة ينتوي الغشَّ في حياته، جاء ليرمي بلواه على غيره، فوق كلِّ هذه العذابات، كان المارَّة يضعون الملح على جرحه، ويتعرضون إليه في جلسته المكشوفة المقروءة من الكلِّ بنظرات شماتة وتفكُّه، وباللمز الجارح:

- ذهبت الطُّيور بأرزاقها.

- ذاك صاعد للحجِّ بعد أن عاد الحجيج.

فاض به الكيل، وذابت دموعه، أوشك علــى أن يقــوم، ويصرف نظرًا عن بيعها، ويرميها في الطَّريق، ومــا أن وضــع كفّه على الأرض يستند عليها، حتى شعر بخــدر في جــسده، وبهواء دافئ قد نُفِخ في صدره، مع هبَّة الغبار في الجوِّ العبوس، وعلى أنغام طرقات رجل يقوِّم الصُّحون النُّحاسيَّة في طــرف السُّوق، وفي نعاس الضَّوء الأصفر الشَّاحب الذي يتسلَّل إليه في زاويته، ويغمر وجهه، ويغمر الأسد الرَّابض على آلة الخياطــة رمزًا لها، حتى ألمَّ به دوار خفيف، فرفع كفّه من على الأرض، وتثاءب تثاؤبًا طويلاً، وابتسم حتى تقوَّس فمه تقوُّسًا ســاذجًا، وسيَّارة فارهة تقف أمامه وقد أضــاءت وجهــه بمــصابيحها القويَّة، يضع كفَّه على عينيه، وقد زادت ابتسامته كمن يُداعَب

بالضَّوء، تنطفئ المصابيح، ويترجَّل من السَّيَّارة رجل أنيق بكلِّ تؤدة واعتزاز، وقد سبقه عطره، ولولا اختلاف اللِّباس والسِّن، لظنَّ أنه النِّطاسيُّ نفسه الذي جاء على ظهر بغلة، أو واحد من ذرِّيته، ترجَّل وعلى وجهه لهفة نمر لصيد عزيز قـــابع أمامـــه، وتحفُّز رهيب، مع تصنُّع للامبـــالاة، كمـــا يفعـــل المـــشتري المخضرم؛ حتى لا يطمع فيه البائع. اقترب وجلس، ونظـــر إلى الآلة بعناية، ومرَّر الجوَّال من أمام الإبرة، وصاحبنا البائع ينظر إليه ببرود، ويمثِّل أيضًا عدم الاهتمام؛ حتى يمكنه أن يعزَّ سلعته.

يضع الرَّجل الأنيق يده على كتف البائع: أنا عارف ما أريد شراءه، وأنت أيضًا تعرف ما تتمنَّى بيعه؛ لذا آتيك من آخـــر، فأنا لا أحبُّ السَّوم، أُمهِرُ هذه العروس التي بجانبك عشرين ألفًا مهرًا.

– ها؟! ها؟!

– أشتريها منك بعشرين ألفًا.

يتنفس نفس المتعجِّب: أواثق أنت من أنك ستفيد بها حقًّا؟ أواثق حقًّا؟ فالبعض، فالبعض اشترى مثلها و لم تأته العفاريت!

لم يردَّ عليه الرَّجل، بل اتَّصل بآخر: يا شيخ، أبشرْ، وجدنا العروس، نعم نعم، بِكْر، بلِّغ سلامي للمارد العجوز، وقل له:

لا هُنْتَ، في منتصف اللّيل تُسقَى من ماء الحياة، وتستعيد شبابك.

ينهي المكالمة وعلى وجهه ابتسامة منتصر، وعيناه بهما لمعة اطمئنان وسنان. يعيد عليه السُّؤال، وهو يعضُّ على شفته، ويهزُّ وجهه هزَّة عصبيَّة: أواثق أنت من أنكَ ستفيد بها حقًّا؟

يضحك الرَّجل: وهل ظننت أني أشتريها منك بهذا الثَّمن لخياطة الأثواب؟!

يسكت وقتًا طويلاً، ثم يأخذ نفسًا عميقًا، ثم يبكي بكاء الفَرِحين: وأنا، وأنا أقول لكَ، وبأعلى صوتي: أنا أولَى بها، نعم، أولَى بها، فلا مكائن عندي للبيع، اعذرني أخي.

يغضب عليه الرَّجل: أمزاح أطفال هذا؟! وما جاء بكَ إلى هنا؟! أتلعب بالنَّاس وتؤمِّلهم ثم تمشي؟! أعطنيها وخُذ المال.

أبدًا، أبدًا.

- يا رجل، خذ خمسين ألفًا إذًا.

- ولا مليون، ولا مليون، ولا مليون (بأعلى صوته)، اذهبْ أنت وشيخكَ، أنا أسقي المارد اللّيلة بنفسي.

واختطف آلته من الأرض خطفًا، والرَّجل يتعلّق بثيابه، يمسكه من كتفه. تطاير الشَّرر من عينيه، وأطاح بيد الرَّجل: انزع يدكَ عني؛ هذه سعدي أنا، أنا.

فتح السَّيارة ورماها على المقعد بجانبه، وقفز فيها، وحلَّ (الشِّماغ) عن وجهه، وابتسم وانطلق، ينظر في مرآة الخلف شامتًا للمشتري الذي كان يضرب الأرض برجله؛ غضبًا على ما فلت منه من نعمة.

فيما كان جرو أسود يطارد السيارة وينبح عليها، وجمهرة من رواد السُّوق والباعة يضربون كفًّا بكفٍّ، هذا الآدمي الغريب الكئيب، دخل السُّوق بسلعة واحدة آلة خياطة، وجلس حزينًا طيلة الوقت لا يكلِّم أحدًا، ولم يقربه أحد، حتى أصابته لوثة فجأة، فأخذ يكلِّم نفسه صائحًا، ثمَّ انطلق بسيارته حاملاً سلعته الرَّاكدة.

* تلك كانت حلقة من سلسلة مآسي الزئبق الأحمر التي عمت البلاد العربية ، ففي الخليج فشت خرافة بأن مكائن سنجر القديمة تحتوي مادة الزئبق الأحمر التي يشتهيها الجن ، ويقضي حوائج من يعوذون به مقابل توفيرها له .

رأس مصاب



بخطواتٍ متثاقلة، ويدينٍ خاويتَين تتأرجحان، مضى العاطلُ عن العمل في شوارع المدينة الراقية.

هوَ ذا معتمٌ حتى تحت الضوء الباهر الذي يتناثر عليه من الأعمدة، ومِن ثريّات الغرف المُطلّة على الشارع. هو ذا صاخبٌ في جوفهِ رغمَ السكون الوديعِ الذي يحفُّه. ومتعـرِّقٌ، يشتمُّ هذا بوضوحٍ رغمَ عبق الفلّ والياسمين الذي يفوح عليه من حدائق القصور، وأطيطُ حذائه القديم يزيده ضجراً وسخطاً.

يمرُّ وحدَه بعد مُدة من تحت شرفة قصرٍ فاره، وفي الشُّرفة ثمةَ طفلٌ شقيٌّ يلهو بزجاجة بلّوريّة لعطرٍ باريسيٍّ وهو يغني وحدَهُ أغنيةً طفولية، ولازالَ الحذاءُ يئطُّ تحتَ الشُّرفة والصراخُ الداخليُّ على أشُدِّه. والزجاجة تدور مع يد الطفل، وتدور، وتدور، غير أنَّها أفلتَتْ إلى أعلى، ثم أخذت تهبط وهي تلفُّ حولَ نفسِها، والعطرُ يَمُوج ويرغو داخلَها، فيما كان الضوء الباهر ينعكس على بلّورِها، ويُلألئ ثوبَ الليل الداكن.

(آه.. آه.. آه)..

صرخاتٌ عظيمةٌ صرخَها الشابُّ من أعماقه. ووقع على ركبتَيه، وشعرَ بدُوارٍ يغمرُه مثلَ موجةٍ عالية يعلوها الزَبَد، وارتمى على ظهره متألماً و مستريحاً.

خلصَ من الصُّراخ الداخليِّ ومن الأطيط، وفي شبه الإغماءة، أخذَ يشتَمُّ العطرَ الذي تحمّم به وغسلَ قميصَه، متمتعًا رغم الألم.. الألم والفرح ليسا عدوّين دائماً، لذا قد تذكرَ بلا مُناسبة، كيفَ كان أبَواهُ سعيدَينِ في يوم ختانه رغم أنه كان يبكي بُكاءً حارًّا، وكيف ألبَساه ثوباً أبيضَ، وسلقا له دجاجة، وكيف أنّ الزوار يومها لقّبوه بالعريس.. (مبروك يا عريس!).

هُرِعَ إليه خدَم القصر، وحملوه إلى الداخل - هذا الداخلِ الذي لَمْ يعرِفْهُ أبداً- وقد كان سعيداً ممتنًّا ولازال يشتَمُّ العطرَ الباريسيَّ فيما بين الإفاقة والإغماء. وأضجَعوه في غرفة أنيقة على فراش وثير، وضمّدوا جرحه.

ودخلَ عليه سيّد القصر الوجيه، معتذراً قلقا؛ فهو رجل أعمال كبير، ودخلَ عالمَ السياسة قريباً بلا خبرة، ويخشى من محضر (إهمال) في قسم الشرطة، قد يصل خبره إلى صحف المعارضة فتعمل من الحبة قبة!

بعد قليلٍ، كان الشابُّ في ثوبٍ أبيضَ، وأمامه دجاجةٌ مسلوقة، بعد أن خاط الطبيب جرحه، وتذكّر ختانه مجددًا، وآمنَ بأنّ ثمة سعادة، فاليوم دجاجة وثوبٌ أبيض وألمٌ ودم ورعاية، تماماً، هي كل العلامات!

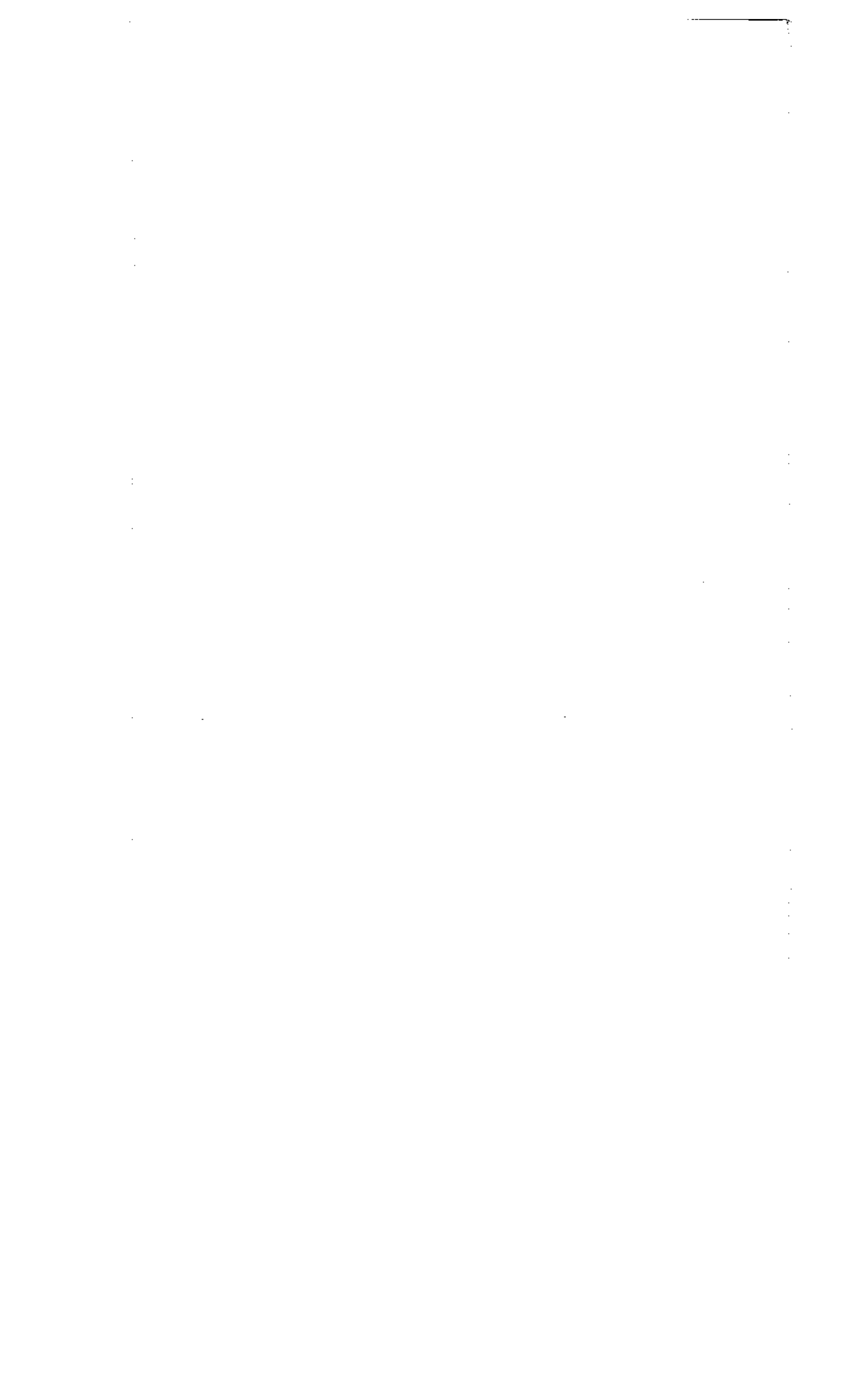
وتبادل السيد مع العاطل كلماتٍ قليلة، عرف منها السيد أن طريح الفراش عاطلٌ عن العمل، فعرض عليه ترضيةً، إمّا بتعويضٍ ماليٍّ، أو بفرصةِ عمل عندَه في مصنعه. واختار الشاب التعويضَ الكبير ، ودفعه الرجل فورًا.

وبعد ساعتين، كان يودِّعُه إلى باب القصر، بينما المصاب يتمنى أن يحلفَ عليه بأن يبيت ليلته هنا في الفراش الوثير، ومضى عازما على ألاّ يغسل قميص الدم والعطر مهما كان .

ولّما عاد لأمِّه آخرَ الليل، نصحَته بأن يفتح مشروعاً صغيراً بالمال الذي حصَل عليه، وتعلّل لها بأنه سيدرس الأمر على مهل، وأنه لا داعي للتعجل.

وهكذا لشهور، كانت الأم تنصح، وكان يتعلّل، وفي الخزانة قميص لم يغسل من بعدها أبداً.

وشفي رأسهُ تماماً، غيرَ أنه لم يشفَ على الإطلاق؛ إذ ظلّ يمرُّ ليلاً من تحت شُرفات القصور الفارهات؛ منتظراً إطلالةَ طفلٍ ما، وقد كان يسمي هذا: حسنَ ظنٍّ بالله!



قرد الماء



في العام ١٩٠٧ ميلادية أبْحرت إحدى السفن المصرية إلى ميناء جدة، تحمل الحجيج.

كانت الرحلة هادئة بلا أيّ مفاجآت، وعلى ظهرها كـــان الحجيج يمشون في ملابسهم العاديــة، وبعــضهم في ملابــس الإحرام في سكينة، لم يَكُنْ ثَمَّة عابث كثير الحركة مهرِّج على ظهرها، إلا ذاك القرد، كما كان عادة بعض أهل البحر في ذاك الزمن من تربية قرود، أو غيرها مـــن حيوانـــات مـــستظرفة يلاعبونها فتخفف عنهم سآمة السفر، والاضــطراد الــــمُملّ لمناظر البحر.

وكان أحد الرجال البسطاء من الحجيج الذين يبيتون علـــى سطح السفينة يجلس متكئًا على الصاري، يعد نقودَه الذهبيـــة، ويتشمَّس في تلك الساعة من الظهيرة، وإذا بالقرد اللاعب ينزل مسرعًا من أعلى الصاري، حتى كان فوق رأس الرجل الـــذي يمدُّ ساقيه وينظر لنقوده الذهبية بينهما، وقبل أن يَنتبه الرَّجُـــل إليه، قفز القرد على فخذ الرجل فأفزعه، وكسح النقود بكفــه مسرعًا وجمعها في الكف الأخرى، وتسلق برشاقة، والرجـــل

الذي أفاق من فزعه يقف مذهولاً يراقب بقلق ما سيفعله القرد الشقي بماله الذي لا يملك غيره، وإذا بالقرد وقد استوى على منصَّة له أعلى الصاري، يهز كفه التي تجمع النقود فتصدر خشخشة يهتز لها قلب الرجل، وهو من تحته ينظر له متمسكًا حتى يترل بها، ثم إذا بالقرد يبسط كفه ويأخذ منها قطعة ويرميها للبحر ، وهو يضحك بشفتين منفرجتين، والرجل يتابعها متحسِّرًا، وأعادها مرة ثانية، فثالثة ، حتى رمى أربع قطع من قطع النقود العشر. ثم رمى على الرجل القطع الستَّ من أعلى، بينما أخَذَ الرَّجُل يَجمَعُها دامعَ العينَيْنِ وقد تَدَحْرَجَتْ على الأرض الخشبيَّة للسفينة، حتَّى وعاها كلها، وأخذ يضرب كفًّا بكف حزينًا، ويُشيرُ للقرد بالحذاء متوعدًا، والقرد يضع كفه على فمه كأنما يحاول أن يمنع ضحكة.

ابتعد الرَّجُل عن جلسته تحت الصاري، ووقف هنيهة مستندًا إلى سور السفينة يُحَدِّق في الماء الذي ابتلع ماله وهو في طريقه للحجاز، وفي نفسه شيء من هذا، وأخذ يصارع نفسه التي تودّ أن تنطق مُستهجنة ما حدث، ولا تقبله أبدًا.

حتى جلس على الأرضيَّة مستندًا للسور ينظر ذاهلاً مكتئبًا، يوزِّع نظراته بين القرد المستفزِّ، والسحب، والطيور التي تَبْحَثُ عن رِزْقها فيما يرميه أهل السفينة، حتَّى مرَّ من أمامه أحدُ

الشُّيوخ فناداه، فأتاه الشَّيخ مُبتسمًا، فأوجز له ما حدَث بنـــبرة تشي بالسخط.

– ما صِناعتُك؟

– أنا لبَّان.

– اصدُقْني القول إذًا: هل تغشُّ اللبن بالماء؟

– صراحةً : أفعل!

– إذًا ما كان من اللبن أعاده القرد إليك، وما كان من الماء ذهب للماء.

ليلة القدر

لن أطيل عليك الكلام، ركبت (عنادي)، وأصررتُ على أن أرَى ذاك الشَّابَّ الذي سيبذل لي كُلْيَته، وأن أجلس إليه قبل أن يلبس كلانا اللِّباس الأبيض، أريد أن أرَى وجه هذا الذي سيعطيني قطعةً منه،حتى لو كان هذا العطاء بثمنٍ، فأيُّ ثمنٍ سأدفع لإنقاذ حياتي سيكون ثمنًا بخسًا، ولا تسألني عن: ماذا نويت أنْ أفعل إذا ذهبت له؟ أُرَبِّت على كتفه، أشكره، أعتذر له، أشدُّ على يده قبل أن يدخل غرفة العمليَّات، كما يفعل النَّاس مع مَن سَيُجرون العمليَّات الجراحيَّة، لا أعرف، كلُّ ما أعرف هو أنني أردت أنْ أراه.

وجدتهم يحاولون صرفي عن ذلك بكلِّ وسيلة، وبكلِّ لطف، ويقولون: إن هذا غير معتادٍ بين المريض والمتبرِّع، ورأيتُ في عيونهم قلقًا يُحاولون إخفاءه، وقالوا، وقالوا، وقالوا، إلاَّ أني قلت: أراه، أو لا شيء.

أخذتُ العنوان منهم كتابةً ورسمًا، وركبتُ سيَّارتي؛ حيث أعرف وجه المكان، وهناك عندما وصلتُ للحيِّ العتيق الرَّاقي، الذي طالما مررتُ به أو ذهبتُ لأحد مَتاجره، وجدت رجلاً

واجمًا، يبدو أنه ينتظر مواصلةً عامَّةً، ووقع بصري على مَحل الزُّهور خلف الواجم، كانت على جانبه باقةٌ زاهيةٌ، ارتكنتْ على منظرٍ طبيعيٍّ لحديقة تتوسَّطها شجرةٌ، مُلصقٍ على حائطٍ - لعلَّه من خشبٍ - فانسجمت الخلفيَّة الخضراء مع الزَّهر، وكان ثمَّة ثقبٌ فيٍّ جذع الشَّجرةَ بحجم العين، ثمَّ شعرتُ أن باقة وردٍ لا تتناسب أبدًا وتلك الزِّيارة، وأن ما معي أنفع وأحسنٍ مثوبةً، فصرفتُ نظرًا عن هذه الفكرة، ولم أصرفه عن الرَّجل الواجم.

سألتُ من سيَّارتي هذا الواجم المنتظِر عن العنوان، حكَّ في رأسه وأعاد عليَّ اسمَ المنطقة كأنه يستوثق مني إن كانت هي المقصودة حقًّا، ثمَّ أشار عليَّ أن أترك سيَّارتي هنا، وأُكمل ما تبقَّى على قدميَّ؛ إذ لا سبيلَ لأنْ تدخلَ سيارتي تلك الدَّهاليز التي سأقدم عليها، فبالكاد تلج بها درَّاجةٌ هوائيَّةٌ،أسعد الله مساءه! قد كان هذا مدهشًا لي كلَّ الدَّهشة: أقريبٌ من هنا؟! كيف تتوارَى خلف هذه الحديقة العريقة من خلفي، والدَّارات الرَّاقية، وصَفِّ المتاجر الرَّاقية عن يميني - منطقةٌ بهذا السُّوء الذي يصفه الرَّجل؟! إنَّ ما يصف لا يبدو له أثرٌ من الشَّارع العامِّ، ولا من الجسر الشَّهير الذي يمرُّ أعلَى الحيِّ، أقريبٌ من هنا؟!

لا أطيل عليك، فقد ترجَّلتُ، ودخلتُ من الشَّارع الجانبيِّ الذي أشار إليه، والذي ستبدأ منه الخُطَى الحقُّ للوصول للرَّجل، مشيت به قليلاً، ولاحظت أوَّل ما لاحظت بعد تواضع البنايات أن أهله لهم سَحَنات مختلفة عن المارَّة هناك من عند الحديقة، أو الذين خرجوا لتوِّهم بعد أن تبضَّعوا من محالِّ الملابس.

هنا عرقٌ، وجهامةٌ، وكَبَدٌ، ووجوهٌ مرهقةٌ، على بُعد أمتار قليلة من أولي النِّعمة المضمَّخين بالعطر، نَضِري الوجوه، وقد كان هناك محلٌّ لإصلاح الدَّرَّاجات الهوائيَّة، محلُّ (عجلاتي)، تلطختْ يدا العامل به في الشَّحم، وهو يعالج درَّاجةً أمامه، كرسيُّها لأسفل وعجلتاها لأعلَى، وقد جلس على صفيحة مقلوبة، ينظر في تروسها ويحرِّك بدَّالَها.

ومن جانبه ورشٌ بسيطةٌ أخرَى للسَّمكرة والخراطة والحدادة، وسألتُ العَجَليَّ؛ لأتأكَّد من وصف الرَّجل الواجم الذي يقف أمام الورد والحديقة والشَّجرة المثقوبة، أو بالحريِّ لكي أتذكَّر ما تبخَّر سريعًا من ذاكرتي، فقام لي، ومدَّ يده للسَّلام، فسلَّمتُ متأفِّفًا، ووصفَ، وكان وصفه أنفع وأحسن تفصيلاً.

ومن هذا الشَّارع الجانبيِّ انعطفتُ بعد قليل في شارع أكثر تواضعًا وضيقًا، قد بغَى الفقر على سَحَنات المشاة به، وعلى وجوهِم قَتَرٌ، وإرهاقٌ كإرهاق المعذَّبين في الخطوات الأولَى بعد الحريَّة، وفي العيون زيغٌ ومرارةٌ، كأنَّما في الصدور مآسٍ لا آخر لها، فمَن هنا يشتكي لمن؟!

حتى وصلتُ إلى هناك، وما أدراك ما هناك؟! المنعطف الحرج الذي لا تدخله الشَّمس، والعناكب التي نسجتْ بُيوتًا عظيمةً عند كلِّ ركن وسقف، والجياع وأناسٌ كأنهم خرجوا من الأجداث ممَّا عليهم من غبرةٍ وفزعٍ ويأس، هناك حيث تشعر أنك خلَّفتَ وراءك منطقةً صناعيَّةً كبيرة عند العجليِّ، والورش التي بجانبه، هناك حيث يخيَّل إليك أنك ابتعدت جدًّا، وأنك قد لا تعود، وإن حاولت أن تعود ضاعتْ بك الدُّروب وتشابهتْ عليك المخارج؛ لتنتهي حيث بدأتَ، فتعود من جديد في محاولةٍ أخرى للبحث عن مخرجٍ، فتفشل، فتعود، فتفشلُ، حتى تنهار أخيرًا على الأرض باكيًا.

هناك حيث تشعر أن ثراءك تهمةٌ، وخيانةٌ للجماعة، واستفزازٌ قد يؤدِّي لتحرُّشِ مَن فاضَ بهم الكيل بك.

هنا قاع مدينة متربٌ ورطب وحزين، ينسلُّ منه يوميًّا باعة جائلون، ومتسوِّلون، ومسَّاحو أحذيةٍ، وحمَّالون، ومسَّاحو

عربات، ومُسلّكو بلاليع، وهائمون على وجوههم لا ينتظرون شيئًا ولا ينتظرهم شيء، كلهم ينادونك بأفخم الألقاب إذا ما ابتدروا إليك؛ ليخدموك ويذلّلوا أنفسهم لك، ويمسحوا سيّارتك أو يحملوا عنك حملاً في مدينتك؛ لتنقدَهم شيئًا يسيرًا من نُقُودك، هذا في مدينتك، لكن عندما تدخل خرائبهم تلك، فعليك أن تتأدَّب وتقلق، وتتمسكن إذا لزم الأمر.

وبعد مدَّة، وأنا في سيري على وصف الرَّجل في المسار الثُّعبانيّ أرَى وأشمُّ وأستمع جديدًا، لا أهمل شيئًا من التَّفاصيل، بدأتُ أشعر بألفة تُجاه الناحية لا أعرف لها سببًا، وصرت أُمتِّع بشعوري بالرَّهبة الممزوجة بالاستغراب، وأحسستُ براحة لم أشعر بها أبدًا في هذا السَّبيل العجيب الذي يُمكنني فيه أنْ أَلْمس الجدران على جانبيّ، إنْ مددت ذراعيَّ عن آخرهما؛ وسعدت بسيري بين الدَّجاج الذي ينقر في الأرض بلا تمييز، والقطط الصَّغيرة التي عبِستْ[١] في بولها والوحل والتُّراب، تتمسَّح في الجدران وتتثاءب وفي عيونها كسلٌ ودَعَةٌ. ومررتُ بين جماعة من الأطفال يلعبون حُفاةً عليهم الأسمال،ودهشتُ منْ ضحكهم ومرحهم وهم يلعبون سعداء، لا يشعرون بالضِّيق ولا بالكبت ولا بالعوز، ولا يتخوَّفون من مستقبلهم الذي لا يعرفه إلاّ الله.

---

[١] عبست: تعلّق بأذيالها وأدبارها الوسخُ.

ورغم هذا السُّرور العجيب الذي انتابني، إلاّ أن الأمر لم يخلُ من قلقٍ، لكنه قلقٌ مثيرٌ يكمل ما أتلذّذ به، اعتراني بعد أن خلّفت منّ ورائي الدَّجاج والقطط الصغيرة والأطفال الْمَرِحين، قلقٌ من الكلاب التي تبيَّنتْ ضلوعها من الجوع، وقد سالَ ريالها، وهم يطاردونني بغير

نباحٍ وبغير تهديد، ففي يدي وجبةُ إفطارِ رمضانيٌّ كبيرةٌ من مطعمٍ شهيرٍ؛ حيثُ أخذتُ إفطارًا معي للرَّجل وأسرته، ولأنني لا أعرف حجم أسرته، احتطتُ وجلبتُ ما يكفي عشرةً أو يزيدون.

كانت الوجبة شهيةً جدًّا ودسمةً، ولها رائحةٌ فوَّاحةٌ ومثيرةٌ، حتى إنِّي عذرتُ الكلاب الضَّامرة، طبعًا فكَّرتُ بشكل عاطفيٍّ في أن أجلس على قدميَّ وأحتجر العلبة[٢]، وأفضَّها؛ لأرمي منها شيئًا ما، ولكنِّي - وبشكل عقلانيٍّ من التَّفكير - أدركتُ أنني لو فضضتُ العلبة لخرج الأمر من يدي،وسأفزع، وسأُحلَب[٣]،وستُنتزع مني، وستنتثر خيراتها على الأرض أمامي، نعم، هكذا يفكِّر بعض الأثرياء؛ للتغلُّب على الأفكار العاطفية.

---

[٢] أحتجر العلبة: أضعها في حِجري.

[٣] سأُحلَب: سأؤخذ بالمخالب.

المهمُّ: ما ردَّها عنِّي إلا شهم عصبيٌّ يجلس على عتبة بيته، لاحظ اضطرابي فتناول أحدها بحجرٍ، فوقع الحجر على بطنه الضَّامرة، فسمعتُ كنقرة على طبلة، فتراجع المصاب يعوي ويتلوَّى من الألم، حقيقةً، تألَّمتُ لأجله، وودت لو أعوِّضه، ولكني لا أستطيع. وانسحبت الكلاب بعيدًا مذعورةً خلف أخيها تطمئنُّ عليه، وخُيِّل إليَّ أنها جميعًا تبكي، والتفتُّ إليها بعد قليل بعين معتذرة، وقد ألهتْ أنفسها باصطياد القُرَاد من أجسادها، وتقبَّلتِ الأمر الواقع، كأنها من كلاب بلخٍ ![٤].

نظرتُ في كفِّي، للتَّذكرة التي تركها لي العَجَليُّ، فبدأتُ أستظرفها وأحبُّها: شحمٌ على كفِّي التي لم تتَّسخ قطُّ، فتذكرت على إثر ذلك أنني أتحرَّى رجلاً، وأنني لست هنا على سبيل السِّياحة، وأنني أخذتُ من العَجَليِّ وصفةً وعلائم ثلاث، وقبل أن أفكِّر في سؤال أحد؛حتى أتأكَّد من سيري في المسار الصَّحيح، ظهرتْ لي أولَى العلائم التي حدَّدها الرَّجل بعين جادة، وصوت رجلٍ يترك وصيةً سريَّةً غامضةً:

---

[٤] كلاب بلخ: كلاب مدينة بلخ، وقد وصفها إبراهيم بن الأدهم بالصَّبر، فقال إبراهيم بن الأدهم لأحد أصحابه: أخبرني عمَّا أنت عليه، قال: إن رزقتُ أكلتُ، وإن منعت صبرت، قال: هكذا تعمل كلاب بلخ، فقال: كيف تعمل أنت؟ قال: إن رزقت أثرت، وإن منعت شكرت.

"وإنك ستلاقي بيتًا طينيًّا عتيقًا مهجورًا مطليًّا بالجير بلون أصفر، مرسومٌ على جداره الكعبة وجملٌ، ومكتوبٌ عليه دعاءٌ بأن يكون الحجُّ مبرورًا والذّنب مغفورًا، وقد تقشّر سنام الجمل بفعل الزّمن، وأفصح عن الجدار الطّينيّ تحته".

واستبشرتُ وأنا أمرُّ من أمامه، وأدركتُ أنّي واصلٌ لا محالة، "ثَمَّ ماعزان مربوطان إلى شرفة خشبيَّة بالطّابق الأرضي، وقد شبَّا على أقدامهما يتناولان بمشقّة أعوادًا خضراء ذابلةً، قد تدلّت أطرافها من فرجة بين ألواح الشُّرفة الخشبيَّة المتهالكة، بيتٌ فماعزان تحت شرفةٍ، ثمّ بذاءةٌ بالطّباشير بحقِّ نادٍ كرويٍّ، هو بعد الشّتيمة ببيتين، فهل أُعيد؟".

وها أنا ذا الآن بعد (الشّتيمة) ببيتين، إذًا؛ أنا الآن أمام باب بيت (الكُلْيَة)، عفوًا، بشعٌ جدًّا أن أقول ذلك، ولكن هذا ما كان يدور بذهني وقتَها، أقصد: بيت الرَّجل الذي سيُقطَع منه جزءٌ لأجلي.وقد تسمَّرتُ طويلاً هناك، يدي لا تطاوعني بالدَّقِّ على الباب، وما العمل؟ هل سأقف هكذا بعد كلّ هذا؟!

ثمّ إذ بامرأة شابَّة جادَّة سمراء، ترتدي خمارًا مُسدَلاً، تفتح الباب وتخرج حاملة فوق رأسها قفصًا به أكياس لمشروبات شعبيَّة ممَّا يروق للعامَّة شربها، كما يروق للمرفّهين شربها في الإفطار في رمضان من باب التَّغيير.

أنا لا أعرف ما في الأكياس بالضّبط، لعله تمرٌ هنديٌّ أو خرُّوبٌ أو كركديه، تخطّتني وكأنها لم ترني، إنَّها إذًا تهرول لتنفذ من الأزقّة الدُّوديَّة إلى ناحية الشّمس والشّارع العامّ والمارَّة والمشاغل والورش؛ حيث يوجد من لديه مالٌ يشتري به بضاعتها البسيطة، أمّا جيرانها في الحيِّ السّخط، فلا أعتقد أن لديهم سعةً للشِّراء منها، لقد دقّتْ ساعة الصِّفر عندها: نصف السَّاعة الذي يسبق آذان المغرب والإفطار.

لا أطيل عليك، سألتها من خلفها عن ضالّتي: بيت رجل الكُليَة، وما وجدتّني إلاّ وقد سألتُ امرأته، التفتتْ وأشارتْ للبيت الذي خرجتْ منه وقالتْ: ذلك، ثمّ سكتتْ واجمةً، ثمّ ابتسمتِ ابتسامةً مؤدَّبة بمشقة، وارتبكتْ محتارةً بين أن تقودني إلى زوجها أو تذهب ببضاعتها؛ لتتكسَّب بها شيئًا يسدُّ الرّمق؛ إذ أخذتْ تبدِّل نظرها بين الباب والسَّبيل، وأُعجبتُ بخوفها على مصدر قُوتها.

ولم يكن هذا سبب كلّ ارتباكها، أنا لا أخدع نفسي، إنَّها عرفتْ من أنا، أنا المريض الثّريُّ، الثّري الذي سيدفع ثلاثين ألفًا، تُحيي مواتَ هذه الأسرة المدفونة في الحيِّ الحضيض، والذي طلب عنوان زوجها، ورحَّب زوجها بزيارته في أيِّ وقت، ذاك أنا، وفي ذات الوقت، كنت رجلاً جاء من المدينة ليخطف بماله بضعًا من زوجها، فأطرقتُ مُحرَجًا.

ثمّ طلبتُ منها شراء كلّ أكياسها، وأعطيتها مبلغًا جيِّدًا، وتركتُ الأكياس كما هي فوق رأسها، حتى أساعدها في اتّخاذ القرار بأن تسبقني إلى زوجها وتذر البيعَ اليوم، ونجح العرض في حسم الأمر طبعًا، ومشتْ أمامي جادَّة، ومحتارةً على ما يبدو بين أن تحتقرني أو تنظر إليَّ بتقدير، وخيِّل إليَّ أن في عينيها دمعًا خفيفًا رقراقًا لامرأةٍ اعتادتْ على أن تكبح مشاعرها.

ودخلنا من بعد الباب إلى ممرٍّ داخليٍّ بين الغرف بعرض مترٍ، فلا أعرف إن كان هذا بابَ (ربعٍ) مغلقًا على عديد من الغرف والشُّقق السَّكنيَّة، أم بابَ بيت؟ وعليه فأنا لا أعرف إن كنَّا في زقاق تمرُّ به الناس أم في طُرقة مما في داخل البيوت والشُّقق، يسدُّ هذا الزقاق – أو الطرقة – من منتصفه طَسْتُ غسيلٍ تجلس إليه شابَّة ظهرها لنا، نادتْ عليها المرأة منبِّهةً إياها لقدوم غريب، فتوارتِ الشابة خجلَى وتركتْ طستها، وقد علتْ يديها الرَّغوة، وأخذتْ ترمقني من جانبٍ، وترمق العلبة بفضولٍ وهي تتشمَّم بنهمٍ، بينما نحن نمرُّ من فوق غسيلها وغِسلينه[٥].

[٥] الغسلين: ماءُ الغسيلِ المتَّسخ.

معي للآن؟ طلبتُ منها أن تخبر زوجها أنني جئتُ لأفطر معه، فدخلتْ، وتركتني أمام باب مسكنهم، فوقفتُ أجول بنظري بين ما يقع حولي من معالم عالَمٍ مدهشٍ مُخشوشنٍ.

وتعجَّبتُ من حمَّام البيت الذي أمامي، وقد قصرتْ بأهل البيت النَّفقة لأن يجعلوا له بابًا خشبيًّا، ووضعوا ستارًا لا يسبل إلى العتبة، يمكنك أن ترَى مِن تَحته سطلاً قديمًا من صفيحٍ، والأرضيَّة الكدراء كأنما نمتْ عليها الطَّحالب. وأنا في حالتي هذه أقتحم بعينيَّ خواصَّ النَّاس، وقد استندت إلى الحائط بظهري وباطن حذائي، إذ بالمرأة تستدير من داخل، وتطلُّ عليَّ وتشير لي بأدبٍ بأنْ ألِجَ من الباب الذي عن يميني آخر الطُّرقة، وأنتظر زوجها هناك، وهو باب إزاء الباب الذي دخلنا منه، ويبدو أنها تحسَّستْ من وقوفي ناظرًا للحمَّام البائس.

دخلتُ من الباب، فوجدت فناءً صغيرًا مكشوفًا يصله ضوء النَّهار، به حبال غسيلٍ خاليةٌ، وفي ركنه الآخر طقم غرفة استقبالٍ قديمٌ جدًّا، كان فاخرًا يومًا ما، ويبدو أن أصحابه قد استغنوا عنه ورموه، فالتقطه أصحاب (الرَّبع) واستخدموه؛ ليكون مناسبًا لاستقبال الضُّيوف، وقد علاه الغبار، وتخلخلتْ بعض أرجله، وتغيَّر لونه الأحمر القاني وصار إلى الأحمر الرُّمَّانيِّ، وثمَّة بقعتان على كنبته من آثارٍ قديمةٍ لبول الأطفال.

خرجتْ بمنفضة، ونفَضتْ الكراسي والكنبة بهمَّة وحرجٍ، ودعتني لأن أجلس، فجلستُ ما بين البقعتين وطرحتُ علبة الطَّعام الكرتونيَّة على الكرسيِّ المجاور، بينما كان الغبار قد تهيَّج في جو الفناء حولي.

ومضى بي وقتٌ وأنا منشغلٌ بما حولي: زير الماء الذي وُضِع له صنبورٌ عند أسفله، والصَّوت الرَّتيب لقطراته التي تنزل على حجر صغير، وبقلةُ حلْبة صغيرةٌ نبتتْ بالقرب منه ترتوي من قطاره، وكأنها نبتتْ هنا لتذكرني بكُليَة الرَّجل، فحبُّة الحلبة مثل الكُليَة في الشَّكل.

وهذه نحلةٌ وقفتْ تطنُّ تحت الزِّير، ثمَّ حامتْ حول الحلبة، وذلك ظهرُ لوحٍ من الخشب أُغلِق به ممرٌّ آخر من الفناء إلى جهة أخرَى خارج (الرَّبع)، وهو مثبَّتٌ على حائط الناحية الأخرَى، ولا يبدو منه من ناحيتي إلاَّ جزءٌ بسعة الباب الذي سدَّه، وقد كان باللَّوح الخشبيِّ ثقبٌ مرَّتْ منه النَّحلة. وكذلك أخذتُ أنظر إلى صورة (بروس لي) القديمة على الحائط، وقد وقف بسراويله الأسودُ مستنفرًا، وعلى بطنه جروحٌ، عجبًا! حتى الذُباب هنا هلسه الجوع[٦]، وذهب بعقله، فوقف على جراح (بروس لي) لاعقًا!

---

[٦] هلسه: أفقده رشده.

ثمَّ كانت بانتظاري مفاجأةٌ، لا أستطيع أن أصف لك مقدار حزني واحتباسَ أنفاسي وتهدُّل كتفي، وكيف سقط وجهي إلى الأرض، لَمَّا رأيتُ رجل الكُلْيَة أمامي، وعظم تَرقُوتيه يظهر مثيرًا للشَّفقة من جلبابه الأبيض المهلهل، يستند على عكَّازتين مشلولاً.

وحكى لي كيف أنه كان يعمل بكلِّ جدٍّ وأمانةٍ بمستودعٍ بأحد المصانع، وبراتبٍ زهيد، حامدًا شاكرًا، وقد استغنَى عنِّي المالك الجديد منذ شهرٍ، وقالَ أنْ لا فائدةَ تُرجى من وجودي.

ورفع رأسه لأعلَى كمن يحاول أن يسيطر على مشاعره ويتأبَّى على الدَّمع، لكنه لم يستطع، دمعتْ عيناه، فنظرتُ إلى عينيه وهو يُحاول أن يرفعهما عن بصري، فدمعتْ عيناي أيضًا، فأخذت أطيِّب خاطره، وأواسيه؛ ثمَّ استغرقنا في حديثٍ وُدِّيٍّ رقيقٍ، كأننا متعارفان منذ زمنٍ بعيدٍ، أحاول أن يكونَ حديثنا خفيفًا يبعث على السُّرور.

ثمَّ نظرتُ إلى الساعة، وطلبتُ منه أن ينادي زوجه؛ لتضع لنا طعام إفطارنا، ولقد جاءتْ، وأخذتْ من العلبة ووضعتْ لنا طعامنا، وتحرَّكتْ بها كنحلة نشيطة، توزِّع الطَّعام على جيرانها الجُنُب وهي سعيدةٌ بأنها تسرُّهم، ثمَّ دخلتْ لتأكل في بيتها ما أبقتْ، وما كنت أظنُّ أن أحدًا قد بقِيَ على وجهها ممَّن

يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ، وجلستْ في مِهْنَتنا عند بابها مستترةً عنّي، وقد ناديتُ بها أنْ يا أختاه، اجمعي لي العظام أحملها معي في ذهابي.

انتهينا من طعامنا، ثمّ شربنا الشّاي أنا والرّجل، ومزحنا وسمرنا، وتوضّأتُ من ماء الزّير، وأنا أشمُّ رائحةً كرائحة وردٍ قد أنعشه المساء والبلل، ثمّ إننا ذهبنا معًا لصلاة العشاءِ والتّراويح، في مصلًّى صغير بالحيِّ، وقد ذكّرنا الإمام بأننا في العشر الأواخر، وأنَّ علينا أن نتحرَّى ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهرٍ، وأن نتقرَّب إلى الله بالأعمال الصَّالحة، وذكر لنا حديث رسولَ الله - صلّى الله عليه وسلّم -: ((أحبُّ الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله على مسلمٍ))، فتمنَّيتُ أن أتقرَّب إلى الله في هذه الأيّام المباركة بأحبِّ الأعمال إليه، ثمّ صلّيتُ، بين تلك الزُّمرة من المضطرِّين، يؤمِّنون على دعاء الإمام بكلِّ فقرٍ إلى الله، وصاحبي عن يميني يرتجف في الدُّعاء، فبكيتُ له، ثمّ بكّيتُ لنفسي، ثمّ إنّي شعرت بنورٍ يغسلني وسط المساكين.

خرجنا من صلاتنا وسرنا إلى بيته، وأنا خفيف النَّفْس، وقد امتلأ قلبي - من عند الله - حبًّا للرَّجل، ودخلنا بيته، وبينما كانت زوجه تقدِّم لنا كوبين من التَّمر الهنديِّ الذي اشتريته منها، أعطيتُ ظهري للحبيب،وكتبتُ له شيكًا مصرفيًّا بثلاثين ألفًا، وأعطيته إيَّاه، وقلت له أنْ لا حاجة لي إلى كُليَتك يا

صاحبي، وتلجلج كأنَّما لا يصدِّق، وبدأتْ يداه ترتعشان من وقع الخبر عليه، فقلتُ له باسمًا وأنا واثقٌ من أنني لن أعود فيما أعطيتُ، وأنِّي وُقيتُ اللَّيلة شحَّ نفسي: لعلَّها ليلة القدر.

وتركتهما من خلفي يبكيان فرحين، يربِّتان على كتف بعضهما بعضًا، يخرجان من صدريهما آهاتٍ تذيب الحجر، ويدعوان لي برضا الله والجنَّة وحسن الختام، حتى أصاب جسمي بردٌ وقشعريرة من دعائهما، ودمعتْ عيناي، وملتُ إلى الأرض، وأخذتُ العظام التي جمعتها المرأة في كيسٍ.

وخرجتُ ليلاً في راحة ما بعدها راحة، وكأني نسيتُ أني بحاجة إلى كُليَة، أمرُّ مبتسمًا في هدأة اللَّيل، على ماعزين وقطط ودجاجٍ، كلُّها نائمةٌ في أمانٍ، وأخذتُ أوزِّع العظام على كلاب بلخٍ الرَّاقدة، وزدتُ المصابَ ضعفًا من الطَّعام، فأخذتْ تتشمَّم، وفتحتْ أعينها، هيَّا، طعام اللَّيلة بلا عناء، وشكرتِ الله على الرِّزق الذي ساقه إليها بغير نباحٍ وركضٍ في اللَّيلِ الوسنان، ووضعته بين ذراعين ، وأخذتْ تأكل بسعادةٍ ورضا.

ولَمَّا خرجتُ حتى وصلت إلى حيث ركنت سيَّارتي عند محل الزُّهور، وأدرتُ مفتاحها وفتحتُ زجاجها، راحت منِّي نظرةٌ شاردةٌ إلى صورة الحديقة والشَّجرة المثقوبة فيها، فأطفأتُ السيَّارة ونزلتُ منها، واقتربتُ من صورة الحديقة؛ حيث وقع

في نفسي ظنٌّ عجيبٌ أحببتُ أن أتأكّد منه، وحرصت على ألاّ أنظر هذه المرَّة وأمتّع عيني بما هو مدهشٌ كما اعتدتُ ، كما أنه لا يصحُّ أن يُرَى رجلٌ عاقلٌ راشدٌ وهو ينظر من ثقب إلى ما خلف الأستار، وبينما كان عامل الأزهار قد دخل محلّه، أخرجت جوَّالي، ووضعته على أذني كأني أجري مكالمةً، وقرَّبتُ فمي من الثُّقب الذي بجذع الشَّجرة وأنا أستند إليها، وناديتُ به مرَّتين أسأله إن كان به حاجةٌ أخرى إليَّ، وانتظرتُ قليلاً، ثمَّ ناديتُ به مرَّةً أخرى،كأني أنادي بالجوَّال، فتأوَّه اندهاشًا من داخل: أأنت هنا؟! وتأوَّهتُ أنا أيضًا، وضحكنا ونحن على جانبي الجدار العازل، ومشيت سعيدًا سعيدًا، كان قريبًا جدًّا.

تلك - يا صاحبي - حوادث اللّيلة السَّعيدة التي سبقتْ زيارتي للطَّبيب، الزَّميل لأكبر كليَّات الطِّبِّ بالعالم، والذي خرج إليَّ مندهشًا مسرورًا بنتائج الفحوصات التي تؤكِّد سلامة كُلْيَتي كلَّ السَّلامة، وهو يسبِّح لله مختلج الشَّفتين.

يعرج وحده



- ١ -

غادرنا (الدُّكش) بلا أسباب منّا، سكنَ الصحراءَ الممتـــدّة حول العزبة، هام على وجهه غير بعيد. كان فتيًّا جدًّا في أيـــام شبابه، ومهيبا، يتبختر في فروٍ مثل فراء السبُع، يُرعِب كلَّ المارّة والسُّرّاق، كلبٌ لا أفضل منه على الإطلاق! شاخ كـــثيرًا في آخر عهده . فقد القدرة تمامًا على رعي الأغنام. فاختار الموتَ بعيداً عن مرعاه، وتأبّى أن يَحيا عالة! وتتبّعته.. شاهدته يمـــشي في وَهْدٍ قرب البيت، مع طيرِ غراب -مثله- شاخَ وفقد القدرة أن يترزّق وسط الفتيان من الطير. انظر. لا أعجب من هـــذا!. هذا يعرج في مشيته، وهذا يحجل. يتناجيان مليًّا. لغة ألّفها ذوا شيبة، ينتظران الموت سويًّا. مرّت أيام، ووقفتُ على الوهْدة في ساعة قيلولة. يا عيناه! هذا غرابُ البيْن الخائن ، يأكل من لحم صديقه. وبكيت. وعرفت الآن سرّ مُلازمته للكلب الغِرّ.. غرٌّ وغرابٌ. يا لوعة!

.. غادرنا (الدُكش) بلا أسباب..

- ٢ -

مات الصحفيُّ الجهبذُ - عفواً - كان الجهبذَ. راحتْ عنه أيامُ الأمجاد والخبطات الصحفية والتحليلات. وتفرّغ في آخر عهده لكتابة كُتب عمّن رحلوا من الصفوة، تبّلها بكل بهارات، ولم يغفل عورة أو نزوة.انتصب على رأس عزائه رجلُ سياسة ثمانينيٌّ، راحت عنه أيام الشهرة، والمؤتمرات والنظريات، مع عهد راح.لازمه الصحفي في السنوات النكرة.. هذا الطيّب متأثرٌ بالفقد، يبكي من لازمه في سنوات خريفه، لّما انفضت عنه الناس.ها قد ترك عزاءً يبكي بلا (كاميرات) ولا حرّاس.. يعرج وحده في مشيته للسيارة (المرسيدس)..

وأخذت أفكر في سنن الأحياء.. ما خدمت أكَلَة لحم الجيفة في كل المرات.

عرائس الموت



– العروسة الثانية –

ثريٌّ عصاميٌّ، بدأ من الصِّفر أو تحتِـــه، وعــــارك الحيــــاةَ وعاركتْهُ، حتى تسلّق قمةَ الثراء والجاهِ في المجتمعِ المخملي.

في العام الأخير، همسَ في أذنَيه مستشارُ أعماله وصديقُهُ في آن، بأنْ يُنشئ قناةً فضائيَّةً للغناء والمجون، واندهش من الفكرة! لكنَّ الرجلَ تكلَّم في أذنه بصوتِ غواية، حتى زاغتْ عيناهُ على أرباحٍ مَهُولة:

قناة فضائية، و(استوديو) به مسرح، وبناتٌ شاباتٌ جميلات بملابسَ جريئة، يلتففنَ حول المغنِّي علــى أنغـــامِ الموســيقى، وستنهالُ عليك رسائل (SMS)...

مكاسبُ ضخمةٌ بمجهودٍ قليل، تلك محطتكَ الأخيرة، المريحة جدًّا!

القناة نجحت..!.. نعم نجحـــت، وســـرعان مـــا لملمـــت جمهورها.

يسيرُ بسيارته مسرعاً جدًّا .. لديه دُفعةٌ جديدة، اليوم لديه كشفُ هيئة: سينتقي من البنات اللائي تقدمن للوظيفة، ينتظرنه في (الاستوديو) مع المغنّي والفرقة الموسيقية .

المطرُ ينهمرُ بغزارةٍ شـديدةٍ علـى الزجـاج الأمـاميِّ ، والمسّاحاتان في حركةٍ رتيبةٍ مضجرةٍ كئيبةٍ تعملان.وهو علـى وشك أن ينهي المسافة في الطريـق الـسريع إلى الأسـتوديو بالعاصمة .وفي ثانية واحدة،يقتحم لُجَّةً مفاجئةً مـن المـاء ، تجمَّعت في منخفضٍ غبيٍّ في الطريق الأسفليّ.وعجلة القيـادة رقصتْ في يده،والسيارة رقـصتْ رقـصة غـضب،وحركة بهلوانية، وفزع سحيق في عينيه ، والأشياء تتقلّب أمامـه مـع الضوء وقَطْرات المطر .

في غَمضة عين، انقلبت به السيارة في منتصف الطريـق. في شبه غيبوبة ، يشعر بحرارة الدم ولزوجته في فمه وأنفه.وعينـاه مثقلتان ترقبان بفتور ووهن ذرات الضوء من الأعمدة والقمـر الشاحب،وهي تتكسَّر على زجاج السيارة والضباب..عينـاه تَلعبانِ في مِحْجَرَيهما، وهو بين حيٍّ وميت.. والعروسةُ المعلّقة على مرآة الخلف، تتراقصُ أمامَهُ مع الريح القوية الـتي هبـت تقتحم السيارة؛ العروسة تتراقص كأنها تتشفّى مِن سيدها.

– العروسة الأولى –

في سيَّارة الإسعاف التي تحمله، ينبعث من ذاكرته شيءٌ قد نُسي، وطلَّ عليه كضفدَعٍ خرج من الطين :

في طفولته المدرسية، كان مدرسُ الأشغال النشط يَبرَعُ في صُنع العرائس وفي ملاعبتها بالخيوط. تفنَّنَ في صُنع عروسة جميلة مثيرة، وألبسها لباسًا رقيعاً، وذهب بها إلى داره حيثُ يسكن في الطابق الأرضي، وعلّقها في سقف الشُّرفَة، تاركاً إيَّاها للتيار؛ والمارُّون يضحكون من العروسة الماجنة وقد تركتْ جسمها للهواء والهوى..!

وغاب المدرِّسُ عن المدرسة لأيام. واقترح هو على الزُّملاءِ الصِّبية أن يَذهبوا جميعا إليه في بيته.

مَشت المجموعةُ بعد انتهاء اليوم الدراسي، حتى وصلوا إلى بيته... صُدموا به مربوطاً بحبلٍ من عنقه في الشرفة، ويعوي ويَزُوْمُ ، ولعابه يسيل..

انفجرَ الصِّبيةُ في البكاء، والمدرِّسُ يتطلعُ إليهم حائرًا مِن نفسه ومن سعاره ، ومتأسِّفًا على صورته أمامهم.

هروَلوا جميعا مذعورين بأنفاسٍ مضطربة؛ والعروسةُ اللّعوب تتراقصُ أعلاه مع الريح، لا تأبَهُ به، بل تسخرُ منه، وكأنما سكنتها روحٌ شيطانيَّة؛ وهوَ يعوِيْ عليها مِن تحتها، وكأنما يحمِّلها وِزرَ ما حدث!

– عرائسُ كثيرة –

في المستشفى الفخم، أفاق الرجلُ في اليوم الثاني، وحكى لابنه الشابِّ عَنِ العروستين، ثم غاب عن الوعي مجدداً.

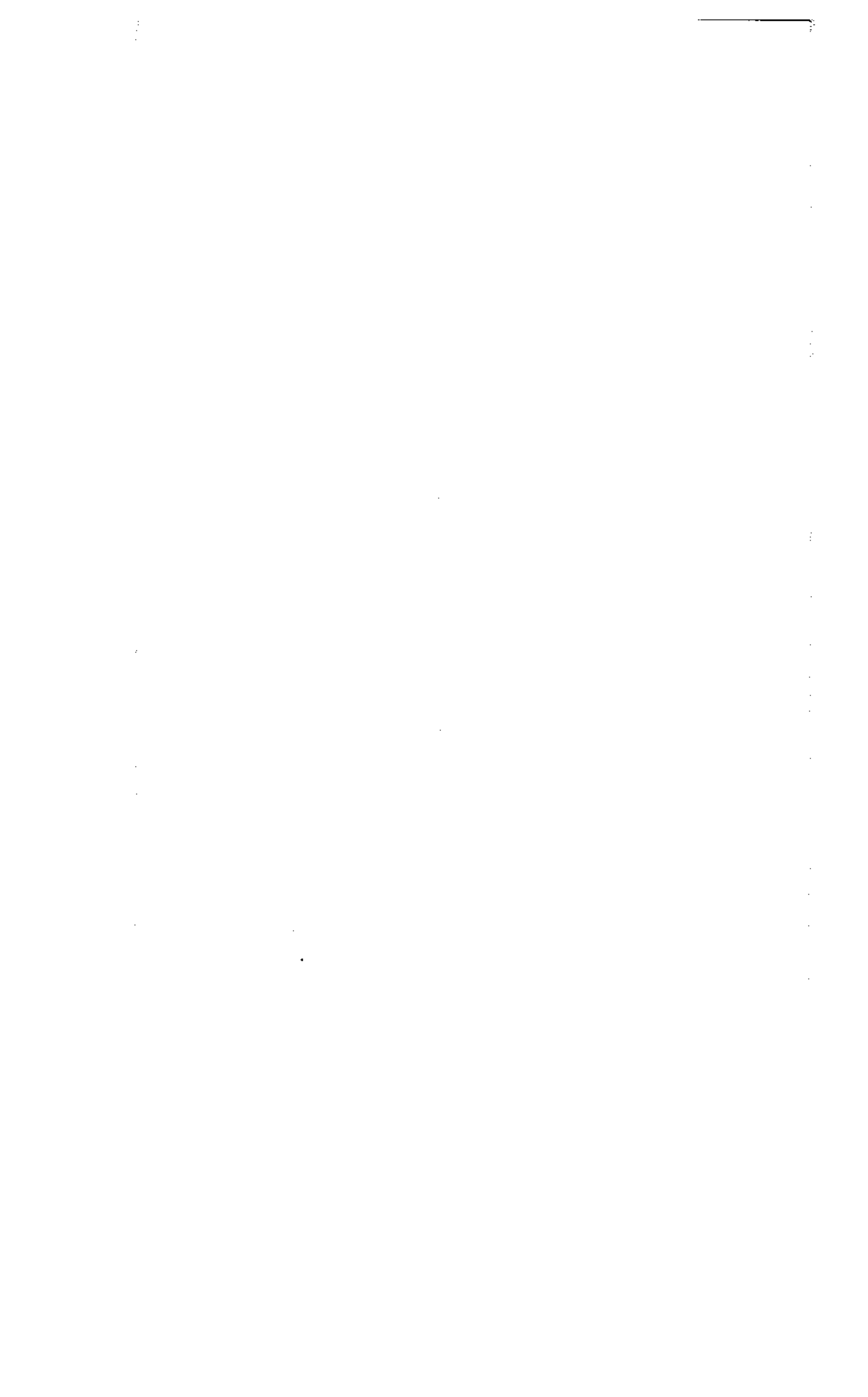
ثُم إنه أفاق إفاقة أخرى -في اليوم التالي- فاجأ فيها الأطباءَ بوجهٍ مرتاح ونبضٍ طبيعيٍّ وحالة جيِّدة، وطلب جهازَ تسجيلٍ؛ يريد أن يسجلَ وصيةً لابنه، فأحضرتْهُ الممرضة مُسرعة.

(سُعارُ مال، ونصيحةُ لئيم، طوَّقا عُنقي يا ولدي. وشرفةٌ فضائية، أُدْلِيَتْ منها عرائسُ كثيرة، ها هُنَّ يتراقصنَ من فوقي وأنا بين الحياة والموت، كأنَّهن يَدهَسْنَ على جسدي.

.. بربِّكَ، أعتقني وأغلقها، الآن.. وليس غداً).

واستغفر اللهَ وبكى، ثم مات، وتغيَّبتْ مِن بعدها إحدى الشُّرفات... والمارُّون، الذين يضحكونَ ولا يبكون، تجمهَروا عندَ غيرها.

كير اليساري



وقفتُ على أوَّل مجلس العزاء في والده (الرَّقيب) بقدمين متردِّدتين، في دار المناسبات التَّابعة لأكبر جامعٍ يُقام به سرادق صفوة البلد: (جامع عمر مكرم) ، ولعله أوَّل وآخر رقيب يُقدَّم فيه هنا واجب العزاء،وقفتُ متهيبًا الحاضرين، مُحرجًا من أن يسألني عن هُويَّتي وكينونتي بين العمالقة أحدٌ من أصحاب النَّظرات الصَّارمة، أُرجِع البصر إليه، هذا أنت وقد صرتَ من الكبار إذًا وعزَّ ناديك؛ فهنا الوزير والمحافظ،وقيادات حزبيَّة، ورجال أعمالٍ، وإعلاميُّون،ودبلوماسيُّون شقرٌ من (روضة خاخ)[١]،بقفزةٍ واحدة كأنها من فهدٍ ربضتَ بين هؤلاء واستقررتَ ، فلا أنت مستكثرٌ على نفسك وجودك بينهم، ولا هؤلاء يترفَّعون عليك،والهيئة تعدَّلت يا ولد،احمرَّ وجهك، وسمنتَ قليلاً، واسترسل شعرك المجعَّد المترب، وارتديتَ ربطة عنقٍ باريسيَّة، وشفيتَ من عادتك العصبيَّة على التَّحديق في السَّقف.

---

[١] روضة خاخ: موضع ضُبط به لدى امرأةٍ خطابٌ إلى مشركي مكة به بعض أمْرِ الرسول – صلى الله عليه وسلم.

لم يعرفني،وأنا أيضًا شعرتُ كأني لا أعرفه،ليس ذاك الذي أبحث عنه، وأفقتُ، واعتبرتُ أن مجيئي إلى هنا خفّة، خفّة يعلم الله أنها

خفّة في البحث عن إجابة لا غير، ولست ممن يبحثون عن وسيلة للسّراة والمتنفذين، فقط كنتُ أبحث عن إجابة للسُّؤال الوحيد: هل تغيَّر؟ أو أننا كنّا سذّجًا لا نعرف الرِّجال؟ وتراجعتُ قبل أن أتقدَّم إليه وأعزِّيه، وخرجتُ من هناك عنيدًا لأبحث عنه في مكانٍ آخر، وأبحث عن كتابي الذي أعرته إيَّاه.

على أوَّل الشَّارع الآن، ويحدوني الشَّوق إلى جيب هامشيٍّ من جيوب الذِّكرَى، ثلّة الجامعيين التي تجمع أخلاطًا من كل اتِّجاه، وجادِّين وعابثين، وبين بين، والقاصّ والشّاعر، والصحفي المتمَرِّن، والرَّسَّام والمسرحي، كانوا يفدون إلى هنا أحيانًا، فتزدحم بهم الحجرة البسيطة فوق سطح البناية الشّعبيَّة.

عند الشَّابِّ اليساري النَّحيف المغرور غريب الأطوار، يحكون، ويحلمون، ويحتجُّون، ويقرضون الشِّعر، ويثرثرون وقت الطَّبخ، وقد تناثرتْ حولهم الأطباق والأدوات والعلب وشرائح البصل، وهو يسمع كثيرًا ويحكي قليلاً، يخرج ألفاظه بثقلٍ وهو ينظر للسَّقف، ويجيب عن أماكن الأشياء دون أن يرفعَ وجهه عن الكتاب الذي بيديه، وإنه التاريخ، لذاك الذي عزَّاه النَّاس في أبيه.

يا سَطحي، يا مدَّعٍ، يا مغيَّب، يا تافه، تلك هي الألقاب التي كان يستخدمها (العبقري) بهدوء لمحاورة الشَّباب من حوله، وكانوا يستظرفونها، طرد الثُّلَّة من بيته عدة مرات، خرجتُ أنا مع الأولَى ولَم أعد، كنت متعجِّبًا من النَّازلين معي على السلَّم، يضحكون ويتندَّرون بالطَّردة، نزلتُ تاركًا خلفي كتابًا قديمًا قيِّمًا، قد أعرته إياه، وأعارني هو إحساسًا بالخيبة والخوار عندما هتنا بتعليقٍ من تعليقاته الصَّادمة، وآخذتُ نفسي كوني لم أردَّ على هذا الخائض، وكان يحزُّ في نفسي شيءٌ بدا لي مؤلمًا أكثر من سكوتي: وهو أنني في دخيلة نفسي أقدِّره وأحترمه ومعجبٌ به، كنت أغبط السيِّ الذي كان يراه دجَّالاً وحقودًا وجشعًا، كان يبصر فيه شيئًا ما لَم نره، وقد زرته بعد الطَّردة ألعق جرحي عنده، فقال لي مبتسمًا وبغير شماتة: (خذ مِنْ كِيره؛ حتى تُنقَّى من تقديره) * .

لَم يعد هناك فوق السَّطح، أي سطحٍ وقد صار من سكَّان الأبراج الفاخمة؟! لم يعدْ هناك، لكن كتابي لا زال هناك، وأنا ذاهبٌ وحدي بالشَّوق والوجل، كنت أشعر أنني أنتهك حرمة

* الكير هو جهاز من جلد يستخدمه الحداد للنفخ في النار لإذكائها ، وقد شبه الرسول – صلى الله عليه وسلم – الجليس السوء بنافخ الكير (إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة)

ماضٍ قد انتهى بعد أن تفرَّقتْ بنا الدُّروب: هذا قد سافر، وهذا انتقل إلى مدينة أخرى، وذاك انشغل، وذاك انطوَى على نفسه، وهناك من لا أعرف عنه شيئًا . وأنا في طريقي إلى هناك قامتْ خيالات أصحابي، وانبعثتْ كأشباحٍ بشوشةٍ باهتة، وارتفعتْ ضحكاتهم، ووقع خطواتهم على السُّلَّم نازلين، وتباريح قصصٍ عاطفيَّة فاشلة، أحدهم كان يبكي على فتاته التي خُطِبتْ فيما كان العراق يُقصَف، ورائحة مطعم الكباب الذي تحت بناية العبقريّ، كانت تصعد إليه فتلعب بأنفه وتدمِّر أعصابه، والطَّعم المميَّز للشَّاي على موقد الجاز ذي الشَّرائط، وحبر الجرائد الطَّازجة الذي يلتصق باليد، وذاك الضَّحك الذي ما زال يتصاعد مع الذِّكرى، أخذ يخفت ويغيم شيئًا فشيئًا، حتى هسهس من رماده بكاءٌ مكتومٌ وزفراتٌ، أخذ يتصاعد شيئًا فشيئًا، حول جنازة السنيِّ الذي مات في الجامع ساجدًا، وذهبنا خلف خشبته، وقد تذكَّرنا الآخرة، وخشينا الموت، غير أنها جملةٌ اعتراضية وانتهت، وعاد الشَّباب يدورون مع ساقية الكلام، والأصالة والمعاصرة، ومشاريع النَّهضة، والحركة القوميَّة، والتَّجديد والحداثة؛ فأخذ صوت البكاء والآهات يخفت، حتى صار هنينًا، ثم عاد ضحكًا مكتومًا، أخذ يعلو حتى

صار قهقهةً، قهقهة مخيفة، من سعيرها يشعُّ شيءٌ من بكاء شاعرنا الذي بلّل دمعه الطِّرس، سهر للصُّبح يكتب أشعارًا عن فتاته التي خُطبتْ، فيما النّاس حوله يبكون العراق!

الآن اقتربتُ، بعض عيون المارِّين تنظر لي كأنها تعرفني، أوَيعرفونني حقًّا أم تلك أوهامي؟ هذا بائع الجاز حليق الرَّأس الذي كان يتبادل معي أحاديث سريعةً لطيفة، والسَّلام عليكم، وعليكم السَّلام، وهاتان ساقا الميكانيكي المنبطح تحت العربة، ممدَّدتان للخارج دائمًا، ولا يخشَى أن يمرَّ عليهما عابرٌ أو سيارةٌ مسرعةٌ، والتفتُّ، فإذا به الجرس المميَّز لعربة بائع الحليب، وبائع الحليب ينادي: هيًّا يا غادة، هيًّا يا محمد؛ كل شيءٍ طازجٌ لَم يتغيَّر كأني كنتُ هنا أمس مساء؛ يا إخوتي المدهشين حولي، ويا أيهذا الميكانيكي الذي لم أرَ وجهه قطُّ،ويا جرس عربة الحليب الصَّاخب، لقد مرَّ زمنٌ خارج هذا المكان، فكيف توقَّف كلُّ شيءٍ هنا؟!

هذا باب البيت أخيرًا، رجلٌ يجلس على كرسيٍّ تحت حائط البيت يتبادل التَّعليقات مع الجالسين على المقهى قبالته، يوقفني، إنه المغني الشَّعبي، نعم هو، نفس السِّحنة التي تجمع بين علامات التَّخنُّث والإجرام، والشعر المبلَّل بالماء والليمون، وياقة القميص المرفوعة، والحاجب المنتوف، وحوله اخضرارٌ مقرفٌ! لم أستطع

أن أفلت من الرَّجل وأعتذر إليه، نادى على ساقي المقهى فأحضر لي كرسيًّا وكوبًا من الشَّاي، وحكى لي مأساته مع صاحبنا ساكن السَّطح الذي أخذ منه مبلغًا من المال على سبيل القرض، ووعده بأن سيقوده لمنتج شرائط غنائية؛ ليرعَى موهبته ويقوده إلى سلالم المجد، ومضى من هنا و لم يعد البتَّة، و لم يهلَّ وجهه على المغنيِّ قط وفي يمينه منتجٌ؛ وأنا قد تكدَّرت، الرَّجل لم يتغيَّر إذًا! بل كنا لا نعرفه، تلك مواهب ما عرفناها عنه، إلَّا السني الذي لم يخدعه الخبُّ.

وأخذ ينفث سجائره في وجهي،وهو يمضغ الكلمات اللزجة بأسنانٍ صفراء، ويحكي لي بصوته النُّحاسي معاناته في سبيل المجد والفنِّ، يحاول أن يبدو أحيانًا رقيقًا مهذَّبًا، ويحاول أحيانًا أن يبدو صارمًا مهدِّدًا بشكلٍ غير مباشرٍ؛ فقد وقع على رجلٍ من بطانة من خدعه، وعندما أخبرته أنني ما عدتُ أعرفه وما عاد يعرفني، نظر لي نظرة مكذِّب آلمتني، وأخذ مني رقم جوَّالي، وتأكَّد منه من خلال الرَّنِّ عليه أثناء جلوسنا، وآلمني هذا كثيرًا، وكلما هممتُ بالقيام فتح لي موضوعًا جديدًا، أو عرض عليَّ كلمات سيغنِّيها، أو أسمعني مقطعًا من أغنية، أو ترحَّم على زمن الفنِّ الجميل، وكلَّ حين يندب حظَّه وغفلته: الله يسامحه، تلك أوَّل مرةٍ يحتال عليَّ أحدٌ؛وكلما كرَّرها كان ينتابني شعورٌ

مخلّطٌ من الإعجاب والحنق تجاه اليساريِّ الهارب من فوق السَّطح إلى (روضة خاخ)؛ لقد خدع رجلاً ثقيلاً باردًا لزجًا بكلِّ يسر، بينما تعثّرتُ فيه أنا بغير ذنب كذبابة ورطتْ في شبك عنكبوت، وكلُّ قليلٍ يمرُّ أحد المارَّة، ويصافحنا ويقف وقتًا ما يحكي في أيِّ شيءٍ، ولا مانع من أن يستشهد بي وبصوت عالٍ غير مبرَّرٍ، يستشهد بي على فلانٍ أو حتى على زوجته المصرَّة على أن تذهب يوميًّا لبيت أمِّها، يرضيك هذا يا أستاذ؟ لا، لا يرضيني، ولكن خذها بالنُّصح والرَّأفة.

وهذا الشَّاي أو يسيح دمي مثله...

يا رجل، لا تحلف بغير الله، حتى أَلَمَّ بي الصُّداع، وشعرتُ بأنني على وشك أن أصرخ وأركل المنضدة أمامي وأطلق ساقيَّ للرِّيح، وبدا لي وجه السنِّيِّ مبتسمًا ومستديرًا كالبدر،وهو جالس القرفصاء: خُذ من كيره حتى تنقّى من تقديره ؛ والوقت يمرُّ، والرَّجل لا شيء عنده، إنه يعذّبني بالملل، لا شيء عنده غير أني تعرَّيت أمامه كرجلٍ مهذَّب يمكن ابتزازه والضَّغط عليه، وبدأ يطيل النَّظر إلى الأرض ناحيةً أقدامنا،وقال لي بطريقة لزجة بعد أن أخذ عنواني أنه سيمرُّ عليَّ بعد أسبوع؛ ليعرفَ ماذا صار في أمر ماله أو المنتج، وبينما كنت هاشًّا بالفَرَج والفكاك، إذ بدا لي هذا الميعاد الذي ضربه كإذْن منه بالانصراف، صدمني بطلب يفتقد للذَّوق واللياقة: أن نتبادل الأحذية؛ فلديه حفل (فرحٍ) سيحييه الليلة،وحذائي مناسبٌ جدًّا للبذلة التي

سيرتديها! وحاولت أن أردَّه بلطف إلَّا أنني فشلْتُ،وخلعْتُ حذائي وأنا مغلوبٌ على أمري، وارتديتُ حذاءه الرِّياضي القديم الذي لا يُناسب ملابسي، وقمْتُ مهمومًا شاعرًا بأذى وإهانة مما أصابني من كير اليساريِّ.

دخلتُ البيت، ألقيتُ السَّلام على رجلٍ في سبيله للخروج، كنت أراه هنا من سكَّان البيت، لم يردَّ، صعدت السلم حزينًا من جفائه،حتى وصلت للطابق الأوَّل، كان هناك على باب شقَّته يفتحها، ذلك الرَّجل البسيط المضياف،ألَحَّ عليَّ في الدُّخول، اعتذرتُ، شدَّني شدًّا، ويبدو أنني كنتُ بحاجة لشيءٍ من الحفاوة بعدما عانيتُ من المغنِّي ومن جفاء الرَّجل الخارج، وهناك في حجرة الاستقبال، تقاطر عليَّ أهل البيت جميعًا، واحدًا تلو الآخر،ثم دخلت ابنتهم حزينةً وقورًا، وبدأ الأب والأمُّ يحكيان كيف أن صاحبي خطبها في الأيَّام الأخيرة، وقدَّم لأبيها أوراقه ليساعده في الحصول على وظيفة حكوميَّة، واقترض منه بعض المال، وقد كانت تهزُّ رأسها المنخفض تؤكِّد كلامهما، وأنا في قمَّة عجبي، أيخرج كلُّ هذا منه؟!

ثم حكتْ هي – وبكلِّ تلقائيَّة – كيف شاغلها وغازلها وعرض عليها الارتباط حتى تعلَّقتْ به،وأبواها ينظران إليها بشفقة وحنان، وأصرَّا على أن آكل من الكيك الذي صنعتْه الفتاة، (أصلها ست بيت ممتازة)، ثم مشروب بارد، ثم شاي،

وكلما قمتُ واستأذنتُ، ضغط الرَّجل على كتفي وأجلسني، ثم أصرَّ أن يريني شريط فرح بنت أخته حتى أتعرَّف على العائلة، لَم أعرف إن كان يريد أن أغري هم الخطيب الهارب فيصل ما انقطع؟ أم يغريني أنا شخصيًّا؟ وتبدَّدتْ ظنوني شيئًا فشيئًا، عندما خرجت المرأة للصَّالة لتشاهد صور فرح جارة لهم، تبدَّدتْ ظنوني إذ نادت المرأة على زوجها، فخرج نشيطًا ليشاهد الصور، وتلاه محسن، فحسين، فأكرم، فنادية، فعلاء، فألفت، كان مشهد خروجهم متتالين بديعًا وموسيقيًّا، ولم يبق إلَّا أنا وخطيبة صاحبي، وتحرَّجتُ، وتحجَّجتُ، وقمتُ، فنادتْ أباها، فأقعدني بشدَّة، وأقسم بالطَّلاق أن أمكث، بل وأن أرتدي جلبابًا من جلابيبه، فقلت له : كيف ؟

قال : ماذا بها ؟! خذْ راحتك.

وتعلَّلتُ بصعودي لأعلى السَّطح، فأصرَّ على أن ألبس الجلباب لأصعد به للسَّطح ثم أنزل لأقضي سهرتي معهم في هذا الجوِّ الأسريِّ، ودخل مسرعًا لغرفته، وعاد بجلباب مقلَّم باللون الأخضر أطول وأعرض من مقاسي، ورماه في صدري وحلف بالطَّلاق مرَّة أخرى. ودخلتُ الغرفة وارتَدَيته مغلوبًا على أمري، وأخذ مني ثيابي على ما يبدو حتى يضمن أن أنزل إليه مرَّة أخرى، وعلَّقها في خزانته، وقال: إنه سيعدُّ الفول السُّوداني واللب، وفيلم فيديو لـــ(أميتاب باتشان)، وخرجتُ وأنا أتنفس الصعداء، تاركًا خلفي عائلة مضيافة مسكونة بالفرح، وألفت بنت السَّادسة وقد حزَموا وسطها وشدُّوا جلد الطَّبلة على

النَّار، حتى علا ضجيجهم، وأنا أرتقي السلم بجلباب طويل واسع مقلّم باللون الأخضر، وقد مسكتُ طرفه بيديَّ، وفي قدمي حذاءٌ رياضيٌّ قديمٌ كريه الرَّائحة، كأنِّي رجلٌ آخر! خرج أحد سكَّان الطَّابق الثَّالث بجلباب بنيٍّ قديم، واستند إلى جلفق السلم[٢] ناظرًا إلى أسفل تجاه الشَّقة المزعجة في الطَّابق الأوَّل، بوجه مائل عابس غائر العينين كأنه أسد عجوزٌ في الأسر، ما كنت أعرف سرَّ هذه الوحشة في وجهه التي طالما تعجَّبتُ منها حينما كنت آتي إلى هنا، صعدت مستندًا إلى الجلفق ناظرًا إليه، وقد توزَّع عليه الضَّوء والظلُّ،وهو كان يتفحَّصني، حتى تهلَّل وجْهُه بابتسامة ضعيفة عندما تعرَّف عليَّ، أخذتْ تتضح شيئًا فشيئًا،كاشفًا عن فمٍ فقد منه سنًّا من أسنانه، وقال بصوت جهوري: أنادت الحجرة صاحبك؟ أعائد هو أخيرًا؟ طال انتظارنا للطَّقش المغربيِّ فاتح الكنوز، ولك عندي يا وجه الخير وزنك ذهبًا؛ لم أردَّ، وبلعتُ ريقي، حتى وصلت إليه قلقًا، ومددت يدي المرتعشة بالسَّلام، مد يده وإصبعه بتشنُّج كأنه يشير به إلى كارثة وقد شبَّ على أطراف قدميه الحافيتين، وأخذ يغمغم بشيءٍ من (البرهتية)[٣]دون أن يصافحني :

---

[٢] الجلفق: الدرابزين. [٣] البرهتية: قسم على الجن يعوذ به بعض البشر برجال من الجن.

(بعزة برْهَتيه برْهَتيه، كَرير كَرير، تَثْليه تَثْليه، طُورَان طُورَان، مَزْجَلٍ مَزْجَلٍ، بَزْجَلٍ بَزْجَلٍ، تَرْقَبً تَرْقَبً، بَرْهَشٍ بَرْهَشٍ، غَلْمَشٍ غَلْمَشٍ)، ثم زمجر، وسال من فمه اللعاب، واندفع داخل شقته كأنه ذاهب ليأتي بشيء، ففررت لأعلى، لا آمن أن يأتي هذا الذي جنَّنه (التَّقدميُّ المستنير) بسكِّين، وصلتُ للطَّابق الرَّابع، وقلبي يدقُّ بكلِّ عنف، وقعدتُ على الأرض، وأخذت ألتقط أنفاسي، وأنا لا أعرفً إن كان عليَّ أن أنزل لطابق مجنون المال، ثم طابق مجنون العيال، ثم الشَّارع حيث مجنون الشُّهرة، فيتصيَّدوني واحدًا تلو الآخر؟ أم أصعد إلى حيث الحجرة أعلى البناية، حجرة اليساريِّ الذي تخلَّى وأخلى؟

وأنا في حيرتي هذه فزعتُ برؤية الرَّجل يخرج من الباب ثانية متهيِّجًا، يذرع ما بين شقق الطَّابق كما يفعل أسد عجوزٌ محبوسٌ في قفص، وقمتُ وظهري للحائط، وخفتُ أن يصعد إليَّ يسألني عن الطقش المغربي فاتح الكنوز المرصودة، ويثور عليَّ ويقتلني، لكنني اطمأننت بخروج طفلٍ صغير من داخل الشَّقة خلف الرَّجل، وصاح به ليدخل، فدخل الرَّجل صاغرًا مستسلمًا، فيما مشي الولد خلفه بكلِّ صلفٍ وكبرياء!

فانزلق ظهري على الحائط حتى قعدتُ، وشعرتُ بالإعياء والضعف، علاوةً على شعوري بالخزيِّ لكوني خفتُ من رجل

يخيفه الأطفال، رميت بوجهي بين كفّي، وأخذت أناجي ربّي وألجأ إليه كي يعتقني مما أنا فيه، وبدأت أتلذّذ برائحة الرّيحان الذي عند باب الأرملة، خرجت الأرملة صاحبة البيت وابنها بكوب من الماء لي، وتكلّما معًا بصوت واحد، كأنه صوتٌ وصداه، ودون أن يسألاني عن سرِّ جلوسي هنا أو حكاية ملابسي الغريبة، أو عن اليساريّ وأين أراضيه، قالا: خرج من الحجرة بليلٍ ولَم يَعُدْ قط، الحجرة أنحسها قدمه فلم يسكنها أحدٌ بعده، و...!

أمّا أنا فقد طغَى بي شوقي للماضي، والمراهقة السّياسية، والظّنون البسيطة السّاذجة، فأعطيتهما ظهري قبل أن يكملا، ارتقيتُ السلّم ببطْء، بأعصاب خائرة من شدّة الانتباه، أتخيَّل أنها هي الأشياء كما كانت، إلّا ما اعتراها من أثر الهجر، ملابسه القديمة وقد عملتْ بها العثّة، ورائحة المعسّل، وصورة (كارل ماركس) على الحائط مصفرّة، وقد لطّخها ونيم الذُّباب، ومرتبةٌ هابطةٌ لَم تعرض على الشّمس قطُّ، ومكتبةٌ من خشب رقيق مليئةٌ بالكُتُب قد نسج عليها العنكبوت، الغرفة يسكنها كلَّ أشيائه، حتى خوفه، خوفه من الجوع والبطالة، وتخيَّلتُ كتبًا كثيرةً ملقاةً خارج الحجرة، مرَّ عليها مطر شتاءٍ وشمس صيفٍ وأقدام الدَّجاج الملوثة بالزبل، وسمعتُ صوتَه الهازئ يأتيني من أعلى وهو يوزِّع اتِّهامات الانتهازيَّة والعمالة للأمريكان على الجميع،ويخصُّ الإسلاميين بالمزيد؛مَن

يصدِّق؟!هذا قد ذهب فجأةً إلى (روضة خاخ)،ولكنها ليست روضة خاخ القديمة التي تُستباح كتبها المخبوءة،بل روضة خاخ العصر التي لا تفضُّ كتبها،ولا يقدر أحدٌ على أن يُوقِّف جواسيسها، ذهب بقدميه إلى سفارة أمريكا ، أمريكا التي كان يحرق علمها في كل مظاهرة،ذهب خلف الذين ذهبوا، وتموَّل، وافتتح مركزًا لحقوق الإنسان.

فوجئتُ: أمامي طابقٌ آخر، طابقٌ آخر؟! لقد كان يسكن أعلى حزن الأرملة واليتيم، وليس بينهما شيءٌ، هذا ما أذكره، واجتزتُ الطَّابق وارتقيتُ السلَّم حتى صعدتُ إلى السطح ووجدتُ فيه حجرةً، لكن السَّطح غير السَّطح، وكذلك الحجرة غير الحجرة، حجرةٌ ينبعث منها تلاوة القرآن، نزلتُ إلى الأرملة وابنها، وقبل أن أسألهما، قالا معًا، كأنَّه صوت وصداه: لو كنت قد دقَّقتَ في البناية من الخارج قبل أن تدخلها ما دخلتها، كنت ستعلم أننا قد بنينا طابقا جديدًا، فانمحَى كلُّ شيءٍ من ذكرى السَّطح وذكرى صاحبك كأنهما ما كانا، فتأمَّل.

ولقد تأمَّلتُ ورضيتُ، وشكرتها ونزلت بهدوء وسكينة، وقد تنقَّيتُ تمامًا من تقديره، وآية ذلك أنني لَم ألقَ أحدًا في نزولي.



ترعة الزمر

فتحَ عينيه بصعوبة، كأنما رموشُه تعاندُه، وقد تلبَّطتْ من مرهَم العين. بدت له طيور مثل العصافير تحلّق فوقَه، رفرفتْ قليلاً، ثم أخذت تتبدَّد تباعاً، و أشكالٌ بيضاءُ هلاميةٌ تقترب وتبتعد، وتعلو وتنخفض، ثم أخذتْ تثبت، وتتكثّف، و تتخذُ ألوانها وأشكالها الحقيقية شيئًا فشيئًا. وكان منها المصباحُ وضوؤهُ الخافت في غرفته بالمستشفى الفاخر، ولوحةُ مسرْجٍ معلقةٌ على الحائط، ونافذةٌ ينفذ من شيشها الحصير خيوطٌ من نورِ النهار الفاتر، ثم هذا أبوه الذي يقف متوتراً متأثّراً، وقد تهاوى بجواره علي السرير لما شعر بإفاقته. خاطبَ أباه بلسان ثقيلٍ ونفسٍ متقطّعٍ:- يا أبتِ، افعلْ ما سأقوله لك . فقال وهوَ يضغطُ عليَ يده المُمدودة: أرِحْ نفسكَ ، لا تتحدثْ.. (ثم أردف لائماً): هكذا كدتَ أَن تَفجَعنيْ فيك في العيد!

– بل أتحدَّث، واسمعني وَعِ ما سأقوله لك، إن كنت تحبُّ أن تراني ماشياً على قدميّ مرَّةً أخرى، معافىً مما أنا فيه.

– احْكِ، ولكنْ رويدك، لا تُجهدْ نفسك.

– اصعد إلى غرفتي، ليس في شقتنا، بل غرفتي التي بالقصر. دعْكَ من شُرفتها الكبيرة، وادخُل الروشن، وقفْ عند آخره

بعيداً عن بابه، وانظرْ من هناك ليلاً، وضعْ عينيك ما بينَ النخلتين (الملكيتين)، وقع بصرُك على ترعة الزُمر، تشقُّ الزراعات. لله رجل هناك، ثاوٍ في عشَّة حاضرة الترعة، تعرفها من نورٍ يأتيك منها ضعيف أصفرَ من مصباح جاز. عيِّنْ مكانها، واذهبْ، وإنْ تشابهتْ عليكَ العشش هُناك، فإنّ آيتها أنّ خلْفَها بالماء رَمَثٌ[١]، يربطه صاحبه إلى شجرةٍ... رجلٌ نحيلٌ ضعيفٌ فقيرٌ رثُ الثوب، في وجهه بَرَصٌ، في جبهته مِثلُ غرَّة الحصان. اطرُق بابهُ، وقل له متودِّداً: الشابَّان اللذان أتَياك أولَ أيام العيد عشاءً وصوَّراك، راقدانِ في المستشفى، ولم يؤدِّيا

الأمانة بعدُ، وسيؤدّياها خمسينَ ضعفاً... فقط ادْعُ ربّكَ أن ينجيهما مما فيهما، ويغفرَ لهما سوأة.

- عشَّة.. وأبرص.. وترعة الزمر؟! (ومد شفته السُّفلى متأسِّفاً على حالِ ابنه).

- أنا لا أحرِّف.. هذه التي تعاطَيناها في أوّل أيام العيد، وكادت أن تُعمينا لولا لطفُ الله، لم تكنْ خمراً مغشوشة ولا من مكان منكور، هي خمرٌ معلّمة، صُنعُ بلادها، إنما شقْوتنا وسفاهتُنا كادتا أن توردانا المهالك. فافعلْ لأجلي ما قلتُ لك، واعجَل، ولاتنِ، أرجوك.

---

[١] الرمث: خشب مشدود إلى بعضه يُستخدم كعبّارة في الترع والقنوات.

أتى الطبيبُ، وهو يشير له بأن يهدأ وألاّ يـــتكلم. وحقنَـــهُ حقنةً منوِّمةً، و ابتسمَ للوالد الشائب الوَجيه، ورجاه أن يَخرج ويترك ابنَهُ ليستريح، وطمْأنهُ على حالته...

خرج الرجل وهو يضرب كفًّا بكفّ مطأطئَ الرأس، عازماً على الذهاب لهذا الرجُل كما أوصاهُ ابنُه،ولعلّه يَفهم منه شيئاً مما حدث لابنه وصديقه، اللذَين قضَيا العيدَ بالمستشفى وكـــاد أن يصيبهما العمى،فيما أخذ ولده يتذكّر مـــا حـــدث وهـــو ينسحب للنوم :

في أول أيام عيد الأضحى، كان الشابُّ في حديقة القـــصر مساءً، ومعه صديقُه الملقّب بـــ (شَكَل) لعُنْجُهيّته وسوءِ طباعه وجرأته، يأكلان الشواء بنهم، ويشربان قليلاً من الخمر.

وبعد أن فرَغا، وأخذا يتنسّمان الهواءَ البارد، بدَأا يتشاوران في خطةِ هجتهما في باقي الليلة التي لم ينقضِ منها إلاّ قليلٌ.

كان (شَكَل) يَعرض على الشابّ ابن صاحب القصر عـــدّة ملاه وأماكنَ للسهر، والشابُّ يعرض عنـــها واحـــدةً بعـــد الأخرى، ثم أفضى له برغبته في أنْ يبدأ السهرة بشيءٍ مختلـــف يداعبُ ذهنه.

– ما هو؟

- يا صاحبي، ثمةَ رجلٌ ضعيفٌ ألحظُه كثيراً وهو رائحٌ غادٍ إلى الجامع القريب، واليومَ كنت أرقُبهُ وهو خارجٌ من صلاة العشاء، يرتعد من البَرد بثوبه السَّمَل، والريحُ تضرب ثوبه، وتعصف بجسمه تكادُ أن تطرحه أرضاً. فأخذتُ أنظر إليه عبْرَ المنظار، حتى بعُد قليلاً، وخفْتُ أن يتوارى عن عيني بين الأشجار والدُّروب المتربة؛ وقد غلبني الفضولُ لأن أعرف أين يضع هذا رأسَه، وعلامَ يكابد في صلاة الجماعة؟ فترلتُ إلى سيارتي، وانطلقت بها خلْفَه، حتى اقتربتُ منه ببطءٍ شديدٍ، وقد أطفأتُ نورَ السيارة حتى لا أُريبه، وتركت بيني وبينه مسافة، أهدّئ سَيرها إذا زكَّ[٢]، وأُسرِع إذا أسرَع، وأنعطف إذا انعطف، إلى أن أوَى إلى عشّته هناك، على حافة (ترعة الزمر)، قليلٌ بعد مزرعة الدواجن المهجورة.

- وماذا تُريد إذاً مِن ذهابٍ إليه؟! ضياعٌ للأمسية؟! تريد أن تُمـلّيَ عينيكَ مِن ضنكِ عيشِه؟! أهذه ساعة الحظّ التي ادّخرتَها ليوم عيدٍ؟!

- لا أدري، حقيقةً.. لا أدري. غير أني أودُّ أن أسمعَه، وأقتربَ منه، لاشفقةً ولا هُزواً؛ أريد أن أتفحّصَه، أنا في حاجة لرجلٍ غير مهندم

وغير برّاق.. أريد أن أطّلع على مشهدٍ مريرٍ، عنــد رجــلٍ عليه نهكةُ الجوع، أفهمت؟

- لا، لم أفهم شيئاً؟ (ثمّ استتلى ساخراً) وكيفَ ســنقتحم عليه عالَمه الخاص في منتجعه؟! وبأي صفةٍ؟! صَدِيقا دراســته مثلاً؟!

- فكّر قليلاً، عهدتُك مسؤولَ التدابير وحلاّل العُقد.

فأشاح بيده: في سهرةٍ حمراء، جلسة ســكر، مــشاجرة، (مقلب) رهيب، مُروق ٍبالحشيش من بَين اللحان والكمائن.

- بل دبِّر هذه أيضا.. وليكن في تدبيرك لين، أسمعت؟ لين؛ لا نريد أن نخشن عليه أو نُفْزعه، وليكن في تَدبيرك أيضاً شيءٌ ما، أقدّمُه له آخرَ الزيارة.. ولك عندي أنك رائدُنا باقي اليوم، نغوي أينما تريد وفيما تريد.

شرَدَ الصديق وأخذ يحكُّ ذقنه فترةً، ثم قال:

- وجدتُها: نركب سيارتك (الهامر) ونأخذ معنا (كــاميرا الفيديو) و(المايكروفون) وعدّة الإضاءة التي عنــدك، ونقــدِّم أنفسنا له على أننا مذيعانِ في برنامجٍ عن المعلومات.

---

[٢] زلَّ: سار بخطواتٍ متقاربةٍ من ضعفٍ.

– أحسنت!!.. جائزته مائتا دولار.

– (مطّ شفتيه ممتعضاً): كما تشاء... وتسأله أسئلة بسيطة فيجيب عنها، وتعطيه الجائزة ونذهب فوراً.. أسمعت؟ فوراً.

– جيد!

– على أن تَعدني بأن نسهر بعد ذلك كما يسهرُ الناس، فلا تفجعني بطلب الزِيارة إلى معهد أورامٍ أو بيت أيتامٍ، هل اتفقنا؟

– اتفقنا.

وركبا في السيارة السوداء، يشقّان الطريق إلى عشّة الرجل، يحفّهما الزرع من جانبين، ونقيقُ الضفادع وعريرُ الصراصير اللّيلية. وهنا تضيق الطريق، وهنا تتسع، وهُنا يَرَيانِ القمر، وهنا تحجبه عنهما أشجارُ الجميز والتوت. هنا يشمّان زهرَ الحقول، وهنا تفوح روائح الرّوث. ثم انعطفا يميناً، ومضَيا من أمام مزرعة الدواجن المهجورة، التي أفلس صاحبُها وانتحر، وتركها سُكنى للكلاب وأوهام البشر، حتى أمّحَيا سُوْرُها الحزين، وغاب عنهما قليلاً ما تعلّق بالناحية مِن رائحة الدجاج..

وبعد قليلٍ وعن يمين، وفي ظلمة حالكة، وضيق، كانت السيارة التي تشبه المصفّحة تُهملجُ على أرضٍ كثُر عليها ورقُ الشجَر الأصفر المتساقط، وكذا الأغصانُ اليابسة الصغيرة، والعظام، بسرعةٍ معقولة، فأخذتْ تحطِمُ ما تحتَها بكلّ عافيةٍ

وكبرياء. وتبعتها جماعة من الكلاب، أخـذت تنبـح عليهـا وتطاردُها. ويمرّان كلَّ قليلٍ على عشَّة عن يمين، وهُما يبحثان عنها، وآيتها أنّ خلفها الرمث، حتى كانت أمامَهما العُشَّة المبتغاةُ التي نأتْ عن غيرها قليلاً، كانت هناك، كأنها تريـد أن تنقضّ في الترعة. مالت السيارةُ إليها بهدوء، ووقفت أمامهـا، بابُها الأماميُّ في حذاءِ الباب، بينما الكلابُ في نُباحها. وأُنزل زجاج السيارة من ناحية الصاحب، المطلّ على باب العـشَّة، وأخذا ينظران إلى الرجُل وهو جالسٌ في عشَّته يقرأ القـرآن، هذا ينظر بلا مبالاة، وهذا أمال رأسه إلى المقوَد ينظر متعجّباً.

{وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَـهُ مَعَـهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون * فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُـرٌّ دَعَانَـا ثُـمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِـنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَـنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ} *

---

*سورة الزمـر (٤٧ – ٥١)

وقال له صاحبه متعجِّلاً مستخفًّا: إننا لن ننتظرَ هذا حتى يفرغ من وِرد يومه.

فضرب الشابُّ البوقَ، فانفزع الرجُل، وصدَّق، وقام مسرعاً. ونظر إليهما وهو يضع يديه على جانبي الباب المفتوح، وقد

تخوَّف الجيئة، والسيارة الضخمةَ المَهيبة، في الليل البهيم، والبرد الشديد، والريح التي تلعب أمامه على الأرض بجويلها من ورق الشجر الساقط، مما يُنذر بجرمٍ في غيابة الليل والعزلة. ثم يرمي بجانب عينه نظراً على الكلاب، وقد سكتتْ متحفّزة تنتظرُ هَلِ العربةُ ومَن بها للرجُل فتسكت، أم عليه فتنبح وتزمجر؟..

دام صمته قليلاً، ثم نطق بصوتٍ مستريب..

الرجل: خيراً؟

الشاب: خيرٌ يا حاجّ، كلّ سنة وأنت طيب... اسم الكريم؟

الرجل: وأنتما طيبان.. اسمي خُضير.. أي خدمة؟

الشاب: وهل ستتحدث إلينا ونحن هكذا داخل سيارتنا، ولا أهلاً ولا سهلاً؟!

فأُحرج الرجل: عدم المؤاخذة، المحلّ كما ترَون، لا يليق بضيافة أهل النعمة.

فأفهَماه أنهما قدما من أجل برنامج، وشرحا له الأمر. وبدأ (شكل) يترل أمام الرجل بالعُدَّة، ويمدُّ الأسلاك ، حتى ذهــب عن خضير الروع، واطمأن للزيارة. وخرج إليهما، واســتقبل (الكاميرا) التي أقيمت بوجه بسيط مرحِّــب. وقــد أنــارت الكشّافاتُ الضوئيةُ المكانَ، وسكنت الرّيحُ عــن جويلــها، و تجمعَت الكلاب إلى بعضها البعض، وأقعَتْ في ركنٍ قصيٍّ عند شجرة، ترقُبُ التسجيل في هدوء يناسبُ موقع التصوير، حــتى إنّ أحدَ الجراء قد شاغب ونبح فأسكتته أمُّه!

وقف شكَل خلْفَ (الكاميرا)، وأخــذ يعالجهــا ويــضبط الزّوايا ويصوِّر، فيما أخذ الشابُّ يسأل الرجل عن أحواله وقتاً، ثم استفسرَ منه عن رأيه في الدُّنيا وأحوال النــاس، وأمنياتــه، والمثلِ الذي يؤمن به، حتى انفرجَتْ أساريرُ الرّجُل وتباســط تماماً، وهو ممنونٌ بهذه الحفاوة به من أحدِ أبناء الذوات، وهذه المعايدة التي خالفت نمطَ المعايدات التي اعتادها. و بدأ الــشاب يوجِّه له أسئلةً بسيطةً مباشرةً لا تُعْيي الأطفالَ إجابتُها، والرجلُ كلَّ مرَّةٍ يتحفّز للسؤال، مراقباً فمَ الشاب، يلتقط كلَّ كلمــة يتفوَّه بها، متوثِّبا للإجابة الصحيحة، ثم يُلقي بها بسرعة، وكأنه يتخوّف من أن يُجيب الشاب بدلاً منه.

ثم بارك له الشابُّ على أنْ أجاب الإجابة السليمة على كلّ سؤالٍ، وربَّت على كتفه طويلاً، حتى لانَ كتفُ الرجُل، كما يَلين ظَهرُ قطٍّ عجوزٍ مِن حنانِ يدٍ تمسِّده على غير عادة. حتى دمعتْ عينا الرجل من الحبور والامتنان. وقدَّم له الشابُّ المائتي دولارٍ بصوتٍ رسميٍّ مسرحيٍّ عالي النبرةِ كأنّما يحيطهم الجمهور، وهو يقول له إن الجمهور العريض عبْر الشاشة يهنّئ له الفوز والعيد، قالها وهو يطلب منه أن يوجِّه وجهَه ناحية الكاميرا، ويتكلمَ إليها. واقترب المصوِّر منه، حتى غطّى الشاشة وجهُه الكريم الذي تعلُوه غُرَّةٌ، وهو يبسم للجمهور العريض الذي خيَّله له الشاب: كلُّ عامٍ وأنتم طيبون جميعاً، نفرْ، نفرْ، والأمة كلّها بخير، ونشكر أسرةَ البرنامَج. والله يسعد الجميع، وربنا كبير!

كان يتكلّم ببطءٍ وقد علَتْ وجهَه ابتسامةٌ عذبةٌ، وشفتاه تختلجانِ من فرحة الفوز، والحياء والتبجيلِ الذي لم يعتَدْهُ.

ثم استتلى بنبرة بها طيبةٌ وحميَّة: أنا متبرعٌ بهذا المبلغ لصالح أهلِ غزةَ، إيْ واللهِ، متبرعٌ به كلّه.

فأشار الشابُّ لصاحبه بأنْ يوقف التصوير..

- أيُّ تبرعٍ وأنتَ فيما أنتَ فيه؟!

- والله يا ولَدي، يحفظُ أهل الخير مِن لحوم الأضاحي ما يكفيني لثلاثة أشهر قادمة، وإني وحدي لا أعول أحداً، وإني لأستحي من ربي أن آخذَ هذا المال وإخوانُنا لا يوقدون النار في بيوتهم ولا يجدون حتّى الشعير طعمةً لأطفالهم (حتى كاد أن يبكي). كان أملي أن أتبرعَ ولو مرَّة واحدةً في حياتي، ولكن (العينُ بصيرة واليدُ قصيرة)، وها قد جاءت.

فقال الصاحب الذي أطفأ الكاميرا: يا رجل أنت..! فكّنا من هذا، وخذِ المال، ودعنا نمشي من هنا، وتبرَّع أوْ لا تتبرَّع.

أُحرِجَ الرجل مِن جفائه، ولكنّه تماسك وقال: عشَمي فيكما أن تدفعا نيابةً عني هذا المالَ لأهل غزة، فأنا رجلٌ بسيطٌ لا أعرف الحوالاتِ، ولا خبرةَ لي بالمصارف.

هزّ الصاحبُ رأسه كمن عقد عزماً، وأشار للشابّ بيده: دعهُ على راحته.

فوضع الشابُّ الورقتين في جيبه متعجِّباً، وأطفَأا الإضاءة، ولَمّا أشياءهما، ومضيا بالسيارة.

وبعد أن شرد قليلاً قال الشاب لصاحبه منبهراً وهو ينظر أمامَه متأملاً فيما حدث.

- أرأيت هذا الذي آثر أهل غزةَ على نفسه؟! لله رجال في الخرَبِ لا يَعرف لهم وزناً إلا هُوَ!

الصاحب: ما أراك إلاّ ستفسد علينا ليلتنا، وما هذا الرجلُ ومن على شاكلته، إلا بؤساءُ مدمنونَ للفقر ويقطعــون وراءه البلاد.. ما لَهُ ولغزَةَ ولجياعِ غزة؟!

الشاب: يا رجل!

الصاحب: إذاً ما لنا نحن ولغزة وجياعِها؟!

الشابّ: ماذا تقصدُ؟

الصاحب: لا أرى مزحةً أظرفَ من أن نــشتري بالمــائتي دولارٍ خمراً، ونشرب نخب غزةَ، ونخبَ أطفال غزة، وجيــاعِ غزة..

هذه هي الوقفةُ معهم التي تَليقُ بصاحبَي كأسٍ مثلِنا.

تعجَّب الشاب: أجُننت؟!.. لقد ائتمنَنا.

- أوَ أنا المجنونُ أم هذا الذي رفسَ النعمة؟!.. ائتمنـــا؟!. ألِهذا عندكَ مال؟! هل صدَّقت اللعبة؟!

وسكتا وقتاً، وكأنّما بدأ بينهما شيءٌ من نفورٍ خفيــفٍ.. فعاجلَه الصاحبُ ليرطِّب الأجواء:

- خذ هذا، وانسَ الأمر.

وقدّم لصاحبه كأساً داخلَ السيارة،فكأساً آخــر، وفتحــا الزجاجَ. قليلٌ.. ولفحَهما الهواء، فسكِرا، ثم إذا هما يضحكانِ فجأةً، وانطلقَتِ السيارةُ مسرعةً كأنها الغضبٌ، وقد أثــارت غبرةً. وتقاسَما مِن داخلها ليشربا مِن هذا المال نخــبَ غــزةَ، وأطفالِ غزة، وجياعِ غزة!.

واجب السبت



يصحُوْ ، يحدِّق حوله فلا يرى شيئًا ، يشعل ثقابًا ، ينظـــر لأعلى بعينين مُرمـــشتين ، كأنه من نظرته ومن إجهـــاده ، لا يعي مكانه ؛ وسرعانَ ما تذكَّر ، فانطفأ عودُ الثّقاب .

هنا نفقٌ من أنفاق غزَّةَ ، أوشك على الانتهاء بعد مـــسارٍ مضنٍ . وهذا الممدَّدُ المجهَد الذي يملأ منخريه من هواء النَّفــقِ الرَّطْبِ ، وقد علا وجهَه العفْر ، هو أحدُ الحفَّارينَ الرِّجـــال ؛ يروغ ليلًا ، يمضي، حتى يتوارى في منطقة تعلُو فيها الحشائشُ بطول النَّاس،وينظرُ حولَه،ثم يقعدُ واضعًا يديه علـــى الأرض، ناظرًا في حفرةٍ،وينزلُ فيها؛ليكملَ ما بدأه هو وإخوانه تحـــت سطح الأرض .

تأخَّر عنه الرِّفاقُ الثلاثةُ كثيرًا ، ذهبوا و لم يعـــودوا . هـــو لايعرف كم من الوقت مرَّ عليه في نومه وحدَه ، لكنه يـــشعر أنه من فرْطِ إعيائه نام كثيرًا .

أخرجَ من جيبه كسرةَ الخبز الأخيرةَ وقـــضمها ، وتجـــرَّع شَرَبَةَ الماء القليلةَ الباقية . أشعل الشَّمعةَ الكبيرة ثم سمَّـــى الله ، علَّق القَدومَ في وسطه ووضعَ الرفشَ في جراب على ظهـــره ، وتقدَّم على مهلٍ،ثم أخفض رأسَهُ ونزل مستندًا على الجـــانبين

بخطوات محترسة ، إلى القطاعِ الأخير القلقِ من النَّفق ، الـــذي يحتاج لدُرْبةٍ وهدوءٍ في حفره.

نفخ في يديه ، وأخرج رَفْشَهُ ، وبدأ يغرســـه في خاصـــرة الأرض ؛ مطاردًا الهواجس التي انتابته ، على ثلاثةٍ كانوا هنـــا يحفرون معه و لم يعودوا ، وثلاثة ودَّعوه في البيت آخـــرَ مـــرَّةٍ بابتسامات عذبة ، زوجُه الحبيبة ، وطفلته الربيعيَّة ذاتُ السَّبعة أعوامٍ ، وابنه الرَّضيعُ الغضُّ . كلما اشـــتدَّتْ عليـــه الفكَـــر المخيفة ، اشتدَّ في الحفر ، أوْ هوَى بالقَدوم على صخرةٍ أمامه ، حتى يتطاير منها الشَّررُ .

وفي برق ضربة ، هلَّ عليه طيفٌ من رؤيا رآهـــا في نومـــه الطَّويل،ونسيَها أوَّل ما أفاق:جاء الثلاثة الحفَّـــارون في ثيـــاب خُضْرٍ يوقظونَه ويداعبونَه ، ويضعون عليه من تـــراب النَّفَـــق ياسمينَ،وينخسونه بعصا من ذهبٍ في خاصرته : (هيا الحَـــقْ بنا.. هيا الحَقْ بنا)..ومضوا في كرامة .. ثم أتتْ من ورائهـــم زوجُه في ثيابٍ من إستبرقٍ يعلوها الدرُّ تحملها غمامةٌ ، مالـــتْ برفقٍ عليه : هيا الحَقْ بنا هيا .

لقد نام يومًا كاملًا بعدَ أن نالَ منه الجهد،آمنًا مطمئنًّـــا. لم يتقلَّبْ في نومه من رجفات الأرض حوله،و لم يُقضَّ سباته من صوت القصف الرَّهيب،ولا الدَّانات التي سقطتْ بالقرب مـــن النَّفقِ ، ذاك الحفَّارُ الغائب تحت الأرَض ، لا يعرف ما جرى في

صباح غزّة النُّكْر. ولا يعلم أن من غادَروه أمس مساءً ، لــن يعودوا له ثانيةً ؛ ذهبوا مع من ذهبوا ، في سبت الدَّم ، فبكتْ عليهم السَّماء . و ذاك وحده اليوم ، فأين يذهب هذا المساءَ ؟ أين يذهب هذا المساءَ والرِّفاقُ صعدوا ؟ .

طوبَى لمن مرُّوا تارةً حبْوًا في الشُّقوق الواطئة الــصَّاعدة ، رجلًا في كعبِ أخيه،في ليونة الثّعابين،وتارةً أخرى في الشُّقوق الضَّيِّقة الهابطة ينصبُّون صبًّا،رجلًا في ظهـــر أخيـــه،في خفَّـــة الثّعالب؛هذا،فيما كان الخوالفُ فوق الأرض يَحْبونَ فرحينَ في الأسهُم الخضراء الصَّاعدة،ويركضونَ ويجأرونَ في حمراء هابطة.

طوبَى لمن تنفّسوا هنا أنفاسًا قصيرةً حرجـــةً،وكحُّوا مـــن صدورهمُ التُّرابَ الذي استنشقوه ، وتعرَّقوا،وخلّفوا من بعدهم رائحةَ عرَقهم الزَّكيَّةَ عالقةً بالنَّفق ، وبقعًا من الدَّم نزفتْ منهم في الظّلام أثناءَ الحفر،وخرَقًا كـــذلك كـــانوا يمـــسحونَ بهـــا وجوهَهم الرِّجاليَّةَ وجروحَهم.رحم الله الذين كانوا يحفـــرونَ فيما ها هنا عازمينَ متوكّلينَ،يردِّدون في احتفارهم مـــا ردَّده أهلُ خير القرون حول نبيِّهم صلّى الله عليه وســـلَّم،في حفـــر الخندق : اللّهم لاعيشَ إلّا عيشُ الآخرة ... اللّهم لاعيشَ إلّـــا عيشُ الآخرة ... طوبَى لهؤلاء ...... ابتغَوا نفقًـــا في الأرض فأبدلهم الله سُلّمًا إلى السَّماء. لم يبقَ إلّا تراثُهم البـــسيطُ الـــذي

خلّفوه وراءهم،وهمهمةٌ ظلّت عالقــةً بالمكان،يــسمعُها هــذا الوحيدُ الذي تبقّى ، فيكذّب سمعه ... وما زاغ سمعُه ولا وهِمَ.

حفر قليلًا،ثم أبى إلّا أن يخرجَ،رغم أن الأوامر كانت تقضي بألّا يغادرَ أحدٌ بغير هدًى، أبى إلّا هذا؛فقد استبدَّ بــه القلــقُ والجوعُ والعطشُ،ووحشةٌ للأهل. والرؤيا المضبَّبةُ التي تذكّرها، أجاءته للخروج.

بعد قليلٍ،وفي عتمة ما بينَ المغرب والعشاء ، كانت هنــاك يدان صلبتانِ تستندان على شفا حفرة تــسترها الحــشائشُ ، ورأسٌ يصّعدُ،ويدورُ،وَ يرقبُ في حذرٍ.. ألقَى نفــسَه منــها، ومضى يتلفّت وهو منخفضٌ قليلًا ، حتّى خرج إلى صعيدٍ آمنٍ، ونَصَب عُودَه .

لم يذهبْ بعيدًا،كي يدركَ ما حدث ويحدثُ فوقَ الأرضِ، ثمةَ عمائرُ تهدَّمتْ لا يندفع النَّاس إليها،تلك أخبارٌ قديمــةٌ إذًا، عمرها يومٌ،وسيارات الإسعاف تضرب أبواقَها حولَه ، والناس في هلعٍ ، يجْرون ويتدافعون تلقاءَ دخانٍ صــاعدٍ مــن وســط البلدة، لضربةٍ حدثتْ للتوِّ .

يتوجّه مسرعًا لحارَته؛ مضى مهمومًا في طريقه، ينظر للبلدة الصَّامدة المكتئبة،وملامحُ الظّمأ واللّوعة على الوجود والبنايات. في حيِّه السكنيّ ، أدخنةٌ تتصاعدُ من عدة أسطحٍ ، وهنا مكانٌ تفوح منه رائحةُ البارود،يبدو أنه تعرَّض للقصفِ منذُ قليــلٍ ؛

لملمَ الرِّجالُ البقايا ، و لم يبقَ إلَّا لطخُ الدَّم ، والصَّمتُ العبوسُ، وأدخنةٌ سوداءُ تحملها الرِّيحُ إلى السَّماء ، ونحيب امرأة ينفــذُ من خلف النَّافذة المغلقة .

ينعطفُ في ممرٍّ جانبيٍّ بخطوات مسرعة وأنفاسٍ لاهثة تجــاهَ بيته ، تجاه أحبَّائه الثَّلاثة. كان يمشي وجلًا يستشعرُ كارثــةً ، قلبُه يحدِّثه أن ثمةَ كارثةً قد وقعتْ،وعيناه تثرثران بأن هذه النَّفْثة من الدُّخان لعلها تصعد من فوق بيته.وتقدَّم،ولما اقتربَ منــه أحدُ الجيران،ووضع يده على كتفه ومضى ، مادتْ به الأرض، و لم يستطعْ من صدمته أن يتبيَّنَ ماذا قال له هذا ؟. بدا له النَّاسُ بعدها كأطيافٍ تمشي حولَه بحركةٍ مهتزة، وبدا كلامُهم مثــلَ همهمةٍ غير واضحة . هو الآن على رأسِ الحارة ، يدعو اللهَ أن يلهمَه الصَّبر إذا ما كان هناك ضُرٌّ نزل بأهله.بعــدها كَثُــرت الأيادي التي تتزاحم على كتفه،وهو يشقُّ طريقَه بينهم ، كــأنَ كتفَيه صُحْفةٌ تحت أيدٍ جائعة . و لم يقدر إلَّا على أن يقــول متوجِّسًا قلقًا : هل كلُّهم ؟

: نعم .. نعم

: أكلُّهم ؟!

: نعم .. نعم

: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون .

هذا بيتُه يستقبله حزينًا منكسرًا،سافرًا وكأنه قد شُقَّ جيبُه، تهدَّم جداره إلى الشَّارع،كان البيتُ يسأله باكيًا : أين كنت ؟!

فرد عليه معتذرًا : كنتُ في واجبٍ .

بعينينِ ساخنتينِ من الصَّدمة ، أخذ ينظرُ لبيته وقد انكشفَ، يصعدُ إلى شقته بالطَّابق الثَّاني ، ليس على سُلَّمٍ ، بل على أنقاضِ الواجهة التي علتْ فغطَّت الطَّابقَ الأرضيَّ كلَّهُ،ها هو كأنه يصعدُ إلى بيتٍ فوق ربوةٍ ، يقفُ على أوَّل مملكته الصَّغيرة،فوق الطُّوبٍ المتكسِّر ، ينظر متأثرًا إلى شقّته المنكشفة؛ سريرٌ صغيرٌ مذعورٌ قد انكسرتْ قائمةٌ من قوائمه الأربعِ فمال إلى الجانب ، وتلفازٌ قد اندلقتْ أحشاؤهُ ، وإناء طعامٍ منكفئٌ وقد اختلط طبيخُه بالتُّراب.يستجمع رباطةَ جأشه ، يدخل صامدًا ، إلى حجرة النَّوم،ينظرُ أسفلَ منه مغتمًّا،إلى شلوٍ من أشلاء امرأته مستورٍ في قطعة باقية من ثوبها المحترق.وبجانب السَّرير بزَّازة رضيعٍ ، يملؤها لبنٌ متخثِّرٌ . وما أوشك أن يستديرَ وينصرفَ،حتى رأى يدَ طفلته، ليِّنةً بيضاءَ ، مبتورةً من المرفق؛تقبضُ كفُّها على ورقة إملاء . كان الدَّمُ على الصَّفحة يغطِّي من حوافِّها الأربعِ . كان الدَّمُ عليها، وعبثُ الرِّيح ؛ الورقةُ ترفرفُ في اليد ، مثلَ الرَّاية ، مثلَ جناحِ حمامة. واشتدَّت الرِّيحُ شيئًا فشيئًا،كأنها غضبٌ عتيقٌ مخزَّنٌ قد تفجَّرَ في

سبت غزَّةَ ، فأخذتْ هَزُّ اليد أيضًا ، هزَّةً مشهودةً ، فاضطربَ قلبُهُ .

مسحَ دمعَه بيدَيه ، وقعد ليقرأ مـــا خطَّتـــه فيهـــا بـــالقلم الرَّصاص .. هذا خطٌّ طفوليٌّ في منتـــصف الـــسَّطر وأعلـــى الصَّفحة ، لايوجد إلَّا كلمتان ، ومِن تحتِهما لم يسعفْها الوقتُ لتكتب شيئًا أبدًا ، كانت قد كَتبتْ : (واجب السبت) .

لملم لحمَهُ المقصوفَ في كيسٍ واحتضنه ، وهـــرولَ النَّـــاسُ المتجمِّعونَ أسفلَ تلِّة الأنقاض ، وصعدوا إليه وهو يزأرُ كالأسد الجريح : وا بنيَّة .. وا بنيَّة .. واجب السَّبت ثقيل .. ثقيل يـــا بنيَّة ... وأنا – والله – سأُنجُزه .

في الصُّبح ، والصُّبحُ قريبٌ ، ربطَ الحزامَ في رحلةٍ سماويَّةٍ ، كيْ يلحقَ بالصُّحْبةِ .

* فازت القصة في مسابقة كاتب الألوكة التي أقامها موقع الألوكة



جدار عائشة

ليلةٌ ظلماء بلا قمر، ومن الجنوب،مرَّت راعبيَّةٌ حمامةٌ وشجنتْ بصوتها الأسيف،فتثاءبت الكثبان وأَوَّبتْ[١]، فانشرط ستر الليل الحالك والفضاء.

في الضَّجيج البعيد، والدُّخان، ورائحة البارود التي تحملها ريح النَّعامَى[٢]، كانت قد ضلَّت سربها،جزعتْ، طلبتْه هناك، وهناك، وهناك خلف أوهامها، فلم تجدْه، وعندما مرَّتْ وحدها من فوق السَّهب[٣] السَّاكن، حتى اجتازتْ، كان قد بلغ بها الوهنُ واللَّوعة مبلغَهما، وترنَّحتْ،حتى فقدتْ وعيها وهوتْ، تلفلف حول نفسها كأنها في قلب زوبعة، قذيفةٌ بريئة باتِّجاه الأرض، غيرَ أنها فجأةً تشبَّثتْ بالحياة،تماسكتْ بصعوبة، وأخذتْ تكبح سقوطها، حتى استقرَّتْ بعد مسافة أخرى، في فضاء يعلو على النَّخل الرِّقال[٤]، توزِّع نظراتها حولها، تريد أن تتأكَّد من كونها ما زالتْ في عالم الشَّهادة، ولا شيء واضحٌ في ليلة بلا قمر، هذه أخيلةٌ لحشائش طويلة متناثرة على وجه السَّهب،تسمعُ حفيفَها والرِّيحُ الباردة تنفُضها نفضًا،وهذه طيور

---

[١] أوَّبت: رجَّعت الصوت. [٢] ريح النعامَى: ريح الجنوب.

[٣] السهب: الأرض الواسعة السهلة. [٤] الرِّقال: النخل الطوال.

(نعَّار اليمن) تغرِّد قلقةً بشكلٍ متقطِّعٍ وواهنٍ ويائسٍ، كهمس المصدومين، أو أنين جرحَى يترفون في الرَّمق الأخير. نجتْ وما نجتْ؛ ما أن فرغتْ من فزع السُّقوط، حتى أفقدها دُوارُها حسَّ الاتِّجاه، وأصابها بشيءٍ من الخبل والرُّعونة، وتشابهتْ عليها السَّماء والأرض في هذا الظَّلام، فمالتْ للأرض أكثر، ثمَّ أكثر، مهلاً مهلاً؛ تلك أحجارٌ وعشبٌ، إذًا هذا هو البرُّ، وتطير أعلى الأحجار المنتشرة، في أرضٍ لا شيء فيها غير أحجارٍ وشوكٍ، ورغم هذا فالأرضُ تقترب، تقترب جدًّا، حَذارِ، جدار، نشطتْ قليلاً وصعدتْ شيئًا يسيرًا في اللّحظة الأخيرة، فتفادتْ مصرعًا محقَّقًا.

كادت أن ترتطم بظهر بيتٍ طينيٍّ عتيقٍ، يحدُّ تلك القرية الصَّغيرة من جنوبها، بيتٌ ظهره للأرض الحجـرة[٥] والسَّهب والطُّيور وأشباح الجنوب، تفادتِ الجدار العالي بفارق شبرٍ لا أكثر، ومرَّتْ فوق حوش البيت المكشوف وهي تكبح سرعتها مرةً أخرى، وحطَّتْ على السَّعف والأعواد الجافَّة التي تسقف باقي البيت، حطَّتْ كأنها ترمي بنفسها من فرط إعيائها، فكُبكبتْ على صدرها ووجهها.

---

[٥] الأرض الحجرة: كثيرة الحجارة.

وبعد قليلٍ، شحنتْ[٦] بعينين ناعستين وهي راقدةٌ، ثمَّ أخذتْ تلتقط أنفاسها وتمطُّ عنقها وتضمُّه، قليلٌ ونفشتْ ذيلَها معلنةً نجاحَها في الهبوط الاضطراريِّ، بغير زهو النَّاجحين، ومشتْ خطواتٍ متعثرةً متمايلةً تتعرَّف السَّطح.

جدار الحوش من ناحية الجنوب، ذاك الذي تفادتْه الحمامة، كان أعلى من باقي جدران البيت، رغم أن خلفه تلك الأرضَ المنعة الشَّائكة التي تتناثر بها أحجارٌ بارتفاع الركبة، ولا يمرُّ بها أحدٌ، كأن أحجارها تبقتْ من زلزلة وقعتْ في زمنٍ غابر، فأبادتْ مدينةً لم يبقَ منها إلاَّ تلك الأحجار، أحجارٌ صلبةٌ، ومن سار في تُهمة اللَّيل إلى جدار عائشةَ بسوءٍ ترضَّض[٧].

عائشة تجلس في الدِّهليز تعجن قليلاً من الدَّقيق، وتتذكَّر الرَّاحلين، وتترحَّم عليهم وهي ترقُّ قرص العجين، وبنتُها العروس التي سترفُّ إلى عريسها قريبًا، كانت منهمكةً في أشغال الإبرة كعادتها، تطرِّز ثوبًا لها في المجلس، تتذكَّر مبتسمةً كيف سها عريسُها عن هديَّته لها ولنساء العائلة من قماشٍ، وحمل صُوانًا[٨] آخر يحوي لفافةً واحدةً من صوفٍ غليظٍ كأنه لخيمةٍ خضراء، على أية حالٍ، كانتا تتلهيَّان عن أصواتٍ

[٦] شحنت: نوَّحت.[٧] ترضَّض: تكسر. [٨] صوان: ما يصان فيه الملابس ونحوها.

الطلقات المتقطِّعة على بعد ميلين منهما، وعن هواجسهما، وعن ترعيب[٩] الرَّاعبيَّة المكلومة الذي يسيل على قلبيهما من السَّقف.

والشِّفاه جافَّةٌ ومتأسيةٌ، والنَّوم هاربٌ، والقرية حزينةٌ، والبرد شديدٌ، لكن لا عذر أبدًا لمن يشبُّ النَّار في الحطب اللَّيلة، إلاَّ تحت جدرانٍ وسقفٍ؛ حتى لا يهتدي الحوثيون للقرية بالظَّلام.

يدٌ حزينةٌ تطرق الباب الخشبيَّ العتيق، ففرَّت الحمامة، قامتْ عائشة، وارتَبَت الباب لصوت القريب الشَّابِّ، جاءها النَّاعي حزينَ النَّبرة وأخبرها أنْ يا عمَّة، أحسَنَ الله عزاءكِ، عريس بنتكِ، مات في سبيل الله على ترابنا الطَّيِّب، تصبَّري يا عمَّة، وصبِّري بنتكِ، لا أدري ما أقول.

شهقتْ، وقالتْ بصوتٍ مخنوقٍ: إنا لله وإنا إليه راجعون، حسبي الله عليهم.

• غالي ترابنا يا عمَّة، رواه الحبيبُ بدمه، أقول لكِ وصدِّقيني.

---

[٩] ترعيب: صوت الحمامة الراعبية الشديد الحزين.

• وأنت صادقٌ.

• أبشِّركِ: شممتُ رائحة المسك من جسمه الطَّاهر، إلى الحين في أنفي وصدري وفي يديَّ.

• قالت - وهي تبكي بكاءً مكتومًا وتبتسم -: عجيب!

• قولي لبُنيَّتك: إن ابتسامةً كانت على وجهه اليوم لم أرَ مثلها منه قطُّ، ما عطَّره الله إلاَّ من أجل جنَّةٍ عرَّفها له.

وبكَى وانسحب.

أخذتْ تغلق الباب بيدٍ مرتعشة، وهي تسمع الصَّرير الحزين، وارتكنتْ على حائط الدِّهليز، ونزلتْ ببطء وجلستْ قليلاً، ثمَّ قامتْ ثقيلةً لا تعرف هل تحكي أو تصمتُ، ولملمتْ بعض الحَطب، وذهبت به إلى حيث تجلس بنتُها بالمجلس، وقالت لبنتها بصوتٍ نازفٍ - وهي تعطيها ظهرها -: كفى تطريزًا الآن، وأطفأتْ مصباح الغرفة، وأشعلتِ الحطب في مشبِّ النَّار وجلستْ إليه، وتركتْ لعينيها الحريَّةَ في أن تدمعا بغير كبتٍ، انسالتْ منها دموعُها وهي تتصفَّح وجه بنتها، ويداها تفركهما فوق النَّار كأنها تستدفئ.

• ما بكِ؟ فيمَ دموعكِ؟

• أبدًا، دمعتْ عيناي من الدُّخان.

• أمَّاه، هناك شيءٌ تخفيه عنّي، من كان بالباب؟

• هزتْ رأسها نافيةً بغير كلامٍ،ثمّ مسحتْ بكفّيها الدُّموع.

• وبعد يا أمَّاه؟! لا يا أمَّاه، إنك تبكين، ماذا جرَى؟

وقامتْ واحتضنتْ أمَّها الجالسة من خلفها، سعلتْ عائشة طويلاً، ثمّ ألقتْ إليها بهدوءٍ خبرَ مقتل عريسها ابن الخالة.

بعد مدَّة من الصَّمت اللَّيليِّ المطبق، أكلت النَّارُ كلَّ الحطب، آخرُ خيطٍ من النَّار كان حزينًا وجنائزيًّا، أرسل في آخر شحنه خيطًا دخانيًّا إلى السَّقف ثمّ انطفأ، فغرقتِ الغرفة في الظَّلام كأنها قبرٌ مغلقٌ.

أمَّا الأمُّ فأخذتْ ترجو لطف الله كثيرًا، إلى أن نامتْ في جلستها، و قامتِ الفتاة، وهي تتلمَّس طريقها بيديها المرتعشتين في أنين، ودخلت غرفتها واهتدتْ لأدواها، وقبضتْ عليها كأنها على كنزٍ قبضتْ، ومضت إلى الحوش وهي تتحسَّس الجدران، ووضعتها في زاويةٍ تحت جدار الحوش العالي، وعادتْ وسحبتْ بصعوبةٍ المطويَّة الكبيرة من القماش السَّميك من صوانٍ تحت سريرها وجرَّها، خلعتْ نعليها خارج الحوش، وفردتِ القماش على أرضه فغطَّاها كلَّها، وأخذتْ تعمل فيه بشكلٍ محمومٍ، كأنها تسابق الوقت، بالخيط السَّميك والإبرة

المسلّة، وبالدُّموع، ولا ترى حتى يديها اللّتين تشتغلان؛ من شدة الظُّلمة.

كلّما تقدَّم اللَّيل، ازدادتْ نشاطًا، وازداد الأمر سوءًا، واقترب القصف، حتى صار على بُعد ميلٍ واحدٍ فقط أو أقلّ، وهي كما هي، وذئبٌ على تلّةٍ كان يعوي في وجه اللَّيل، ولهيبٌ يومض وينطفئ من ها هنا ومن ها هنا كالنُّجوم، وصياحٌ وأصوات فزعٍ ونداء تصلها ضعيفةً ومخيفةً جدًّا، وأنفاسٌ، وأنفاثٌ، وأوجاسٌ، وأهجاسٌ، ووسوسةٌ، وعزيفٌ[١٠]،كأنها لأمّةٍ من السَّعالي[١١] الحقودة هاجتْ في ليل هذه الصَّحراء التي تحيط بالقرية الصَّغيرة.

قبيل الفجر، طوتِ القماش كسجّادةٍ كما كان وحملته على رأسها، وصعدتْ على السُّلَّم الخشبيِّ حَذرةً وهي تنوء بحملها تلتقـــط أنفاسها على الدَّرجات، وجعلت الوجه الذي اشتغلتْ عليه إلى الجدار، وأخذتْ تتنقَّل بالسُّلَّم حتى ثبَّتتْ طرف القماش على حرف الحائط من الدَّاخل بالمسامير وهي مخفضة الرَّأس، ثمَّ رمت القماش إلى الخارج وانخفضتْ بسرعةٍ،

---

[١٠] عزيف: صوت الرمال إذا هبَّت بها الرِّياح.

[١١] السعالي: غيلان الصحراء.

وهي تبكي فرحةً، مقشعرَّة البدن، راضيةً عن نفسها، ونزلت إلى أرض الحوش متعرّقةً مجهدةً، تتنفّس أنفاسًا عميقةً كمن شفَى غليلَه.

في الصُّبح، كانت الحافلات والشّاحنات قد وصلتْ لتقلَّ سكّان القرية وأثاثهم ودوابّهم إلى مخيَّمٍ آمنٍ، بعيدًا عن النّار التي تضطرم ليلاً، في هذا الصُّبح دمدم على العيّارين أسودٌ من حفدة الصَّحابة ومن أصلاب البدريّين، فاندحروا إلى بعيدٍ، مخلّفين وراءهم أرجاسًا من سواقطهم: بقعٌ من الدّماء ونعالٌ وحُزَم قاتٍ، وأحرازٌ بالنداء السُّرياني، وصكوكٌ لدخول الجنَّة.

ركبتْ هي وأمُّها في الحافلة، وتحرَّكت بهم من أمام القرية لتدور حولها، اجتازت البئرَ المبلَّلة من دمع المرتحلين، وقطعتْ ملعب الكرة الذي سيفتقد ضجيج صبيانه، ثمّ حاذت الكرم الأخير الذي دنتْ قطوفُه من نوافذ الحافلة، ودخلتْ للراحلين، كأن أشجاره تصافحهم وتهديهم شيئًا أخيرًا إلى حين اللقاء، ثمّ صعدتْ على طريقٍ ضيّقٍ غير ممهَّد، توشك أن تمرَّ من خلف البيت، بين السَّهب والأرض الحجِـرة، كانت في الخلف، وجهها ملتصقٌ بالزُّجاج تمامًا، تنتظر بفارغ الصَّبر رؤية عمل يديها الذي أنجزته في الظّلام الدّامس والأجواء المخيفة، خائفة من أن تعلن جداريّتها عن رسمٍ طفوليٍّ، وعن خطٍّ

تناشير[١٢]، متى؟! متى؟! ها قد اقتربنا، قليلاً وأراه، قلبي يكاد أن يقفز من صدري شوقًا وخوفًا، اقتربَ، أوشك أن يُرَى، يا ليته سويًّا بغير عيب، يا ليته، ها هو! الله! الله! الله! سيري ببطء أيتها السيَّارة؛ بل قفي قليلاً، ما هذا الجمال؟! وما هذه السَّكينة؟! هذا هو على جدارنا، بهيبته وجلاله واخضراره: عَلَم التَّوحيد على جدار عائشة، لن يتسوَّر الأفَّاكون بيتنا، هذا يسدُّ بيتَنا أمامهم، فيسدُّ القرية؛ بل يسدُّ الجنوب، لا؛ بل يسدُّ السُّعوديَّة كلَّها. حقَّ لها أن تبكي وتضحك في آنٍ واحدٍ ووجهها على زجاج الحافلة؛ فمن أمامها علم التَّوحيد على جدار عائشة، ترفرف عنده راعبيَّةٌ تودِّع النَّازحين، وتبشِّرهم بعودةٍ قريبةٍ.

---

[١٢] التناشير: خط الأطفال أول ما يتعلمون.

الخبيئـة

كان يحدِّثني مبتسماً وهو يهزُّ رأسه متَّكئاً بمرفقيه إلى مسند الكنبة ودون أن ينظرَ إليَّ، كأنما يسترجع لنفسه لا يحكي لي ، قال :

كنتُ قد أخذتُ في ا لكتـّـاب : (والشَّمس وضحاها).. ورجعتُ يومها من عند الشيخ مشدوهًا منبهرًا وكأني لم أكـن أعرف الشَّمس من قبل ؛ صوت شيخنا كان عريضًا قويًّـا ، ويبزغ من خفوتٍ كبزوغ الشَّمس وقت الفجر، على حدِّ تعبير أبي عن صوته ..... آه لو كنت سمعته حين يتلو (والـشَّمس وضحاها) .

رجعتُ إلى البيت ، رسمتُ على لوحي الإردواز شمسًا كبيرةً بالطبشور ، وكتبت اسمي في منتصفها: (حسين) .

صعدتُ إلى سطح الدار ليلاً ، وأنا مصمِّمٌ على أن أراهـا كيف تولد من قلب الليل كما يقوم صوت شيخنا من خفوت؟ ما كنتُ قد شاهدتُ بزوغ الفجر من قبل .. كان مثيرًا لي أن أرى كيف يولد الصُّبح وأين يفرُّ الليل؟

قاومتُ النوم طويلاً بأن أغسل وجهي كل حـين بمـاءٍ ، ولكن نسمة الهواء الليلية غلبتني ، ومسحتْ على خشمي مسـح

رائحة النّعناع والرَّيحان وغيرها من زروع حولنا يسمر زهرهـــا ليلاً ، وسحبتني جميعًا للنوم . ما أيقظني إلّا صوت أبي وقـــت الظهيرة .

:أأنت هنا ونحن قلبنا عليك البلد ؟!

سحبني من يدي إلى أسفل بغلظة ، نزلتُ معه في صــــمت ووجلٍ ، ومعصمي ضائعٌ في كفّه الغليظـــة الموشـــومة . وفيً منتصف اليوم ، كانت هناك غضبةٌ أخرى أشدّ ، على لـــوحي الإردواز الذي ضاع،لا أذكر إلاّ أن آخر ماسطرتُ ورسمـــتُ عليه هو اسمي داخل قرص الشمس..ولا أعرف أين نـــسيته .. للآن لا أعرف .

أنهى حديث ذكرياته هذا ، وضـــحك ضـــحكةً صـــافيةً وطويلةً، حتى بدا وكأن آخرها موشًّى بنبرةٍ بكاءٍ.وشرد تمامًا، وكأنه لم يعد معي.

تذكّرتُ هذا الحديثَ الطفوليَّ الباسمَ الشجيَّ ، وأنا اليـــوم على نفس السَّطح ، تحت تكعيبة عتيقة تآكل خشبها ، وربمـــا هي التي آوى إليها يوم أن ضيَّع لُوحةُ الإردواز .

بيتٌ مهيبٌ مبنيٌّ في منتصف القرن التاســـع عشر،تـــستمع لصرير أبوابه الضخمة،فيخيَّل إليك أنك ستشهد خلف الأبواب المغلقة رجالاً لهم سحناتٌ مختلفةٌ،وعلى رؤوسهم عمائم كبيرةٌ،

يتحدَّثون عن الـــوالي،وحُجج الأراضي،والفيـــضان،وعفاريت البلدة،وشجرة العائلة؛عصرٌ آخر خلـــف الأبـــواب.وكـــذلك السَّطح مهيبٌ،كأنه مهبطٌ ليليٌّ لأرواحٍ تتدلَّى رويدًا رويدًا من السَّماء الزَّرقاء.وبقيَّة فرن الخبز الشَّمسيِّ بالناحية الأخرى من السَّطح،وعن يساره قليلاً أطلال عشَّة للدواجن.ويـــرنُّ في أذنيَّ نداءٌ لامرأةٍ ماتتْ منذ أعوامٍ طويلة،تزعقُ على ابنها ليشتري لها الخميرة من أجل عجين الخبز الشَّمسيِّ..واطَّلعتُ على البلـــدة من هذا المهبط الليليِّ المفتوح على السَّماء،فوجدت عالمًا سابحًا في الظلام.

تذكَّرتُ حديثه الشَّجيَّ ، في تلك الأجواء الليلية الخاصة ؛ ولم يكن هذا الجوُّ الذي تحلُّ فيه أطياف الجـــدود والجـــدَّات ليسمح بالنَّوم السريع .

شدَّني إحساسٌ داخليٌّ لحوحٌ،وحدْسٌ،وقلقٌ عتيـــقٌ،وحيرةٌ ظلتْ هائمةً هنا لاتبرح المكان بعد أن نزل طفلٌ محتارٌ ، وحنينٌ نبع في قلبي وسيَّرني كالمنوَّم،أن أعبث بعصا في هذا الشَّق مابين حائطين منخفضين عند التَّكعيبة ؛ كانا بدايةً لبنـــاءٍ قـــديمٍ لم يكتمل، أخذتُ أمرِّرها في الشَّق الضَّيق ،لامستِ العصا شـــيئًا ما، أخذتُ أعالجه وأزيحه للخارج،برغبةٍ عنيدة تشبه الـــشبق، حتى صار قريبًا يوشك على أن ينبذ من مكمنه العتيق ؛ وبعـــد

قليلٍ،سَحَبتُ الخبيئة:لوح إردواز ، عليه شمسٌ طفوليَّةٌ وضيئةٌ،في قلبها كلمة (حسين).لان قلبي كقطَّة في يدي صاحبها العائد بعد غيبة ، كأني قد وجدت شيئًا أعرفه أنا بنفسي من عالمٍ قبل عالمنا هذا ، أعرفه وافتقدته ، افتقدته من قبل أن أُولَد ، كأنما أورثني (حسين) من صُلْبه حسرةً على ما ضاع منه.. تحفة!.. تحفةٌ أن أجدَ شيئًا كهذا؛سطح اللوح يعلوه بعض الغبار والتآكل والحفَر وشيءٌ من سكينة .. ابتسمتُ واستسلمتُ للنوم العميق .. والنَّعناع والرَّيحان يهدهداني معًا.

في الصَّباح ، نزلتُ إلى الطَّريق ، اخترقتُ حقول السِّمسم راضيًا ، وفي يدي الخبيئة ، أنظرُ للحقول حيناً وحيناً للشَّمس التي لم تتغيَّر ومرَّت عليها أممٌ وقرونٌ . وصلتُ إلى آخر الأخضر ، حيث تخضرُّ هناك ، عند كرم النخيل ، وزراعات صبَّار ، وأشجار سدرٍ. وخليط أصوات المياه وماكينة الريِّ والأوزِّ والأطفال يأتيني من بعيدٍ محتفلًا بالحياة وأنا في آخر الأخضر وعند أول الرِّمال .

الآن ، أخترقُ المقابر في تَهيُّب ؛ وصلتُ أخيرًا ، رميتُ عليه السَّلام ، ثم فردت يدي أريه ما معي ، وابتسمت له في رقاده.

: ها قد وجدتُ لوحك الإردواز .... وشمسك .

نظرت للَّوحة الرُّخامية البسيطة (الحاج حسين إبراهيم ١٩٠٤-٢٠٠٤) ووجدتُ سربًا من اليمام رشيقًا يودِّع

الحقول الخضراء ، ويذهب بعيدًا للسهوب . ارتعش جسدي وطفرت من عيني دمعةٌ لاهي دمعة حزنٍ ولا دمعة فرحٍ ، إنما دمعة حكمةٍ .

ودَّعته باسمًا دامعًا وأنا أهزُّ رأسي.سرْتُ في طريق العودة وأنا أشعر أن عيني طفلٍ تودعني مبتسمةً ، طفلٌ نبذَ إليَّ في هدْأة المقابر،وكلَّما التفتُّ ، غاب بين مشاهد القبور في لمح البصر، كطفلٍ شقيٍّ ظريف ، فشعرتُ بألفة مقلقة ، عجبتني اللعبة وأقلقتني ، ثمَّة جاذبيَّةٌ غير متوقَّعَة ، فوسَّعتُ خطواتي دون الهرولة ؛ كي أهرب بكبرياء.

من أنت يرحمك الله ؟

أأنت جدِّي (حسين) وجاءني طفلاً يشكرني على أن عثرت على ضالَّته وجاء يودِّعني ؟ أم أنت أنا فتنتظرني هناك ، للميعاد الذي أجْري تلقاءه من يوم أن ولدتني أمي ؟

الفهـــــــرس

لمراسلة الكاتب

mtawfiq١١٤@yahoo.com